صفحة ليبيا تاريخ وثقافة على الفيسبوك



محمد فريد أبو حديد



مكتبة الشباب

٥٥

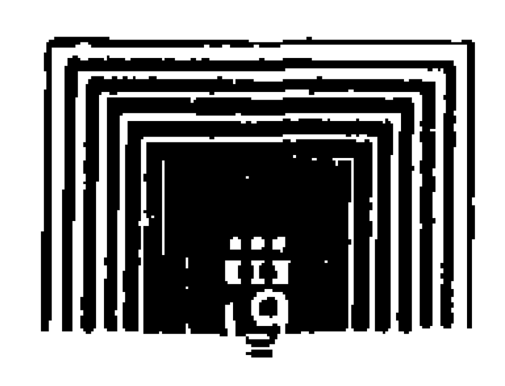


صفحة ليبيا تاريخ وثقافة على الفيسبوك



مكتبة الشباب

٥٥



الهيئة العامه لقصور الثقافة

أيامى فى ليبيا

محمد فريد أبو حديد

ابريل ١٩٩٧

الطبعة الأولى

ينشر هذا النص للمرة الأولى فى إطار احتفالية المجلس الأعلى للثقافة بالذكرى الثلاثين لرحيل محمد فريد أبو حديد

مكتبة الشباب

أيامى فى ليبيا

محمد فريد أبو حديد

كنت فى بيروت أشهد اجتماع مؤتمر تعليمى عندما جاءنى تلغراف على غير انتظار. كان ذلك فى الخامس والعشرين من أغسطس سنة ٥٥، وقد انتهى المؤتمر إلى توصيات فى آخر جلساته، وكانت صياغتها فى صورة عقائد يؤمن بها المجتمعون، أولها هذه العقيدة:

«نؤمن بأن الشعوب العربية فى شتى أقطار العروبة تكوّن أمة واحدة تجمعها وحدة الجنس الواحد والثقافة الواحدة واللغة الواحدة، كما يجمعها تاريخ شامل مرت فيه بآلامها معاً وجاهدت فيه من أجل آمال واحدة».

وجدت التلغراف ينتظرنى فى الفندق بعد هذه الجلسة الأخيرة، وكنت أحدث نفسى وأنا فى طريقى إليه بأمنية عزيزة أتطلع إليها، وهى أن أقضى بضعة أيام فى ربوع لبنان بين أشجار الصنوبر الحالمة. كانت تلك أمنيتى التى تطلعت إليها لأذوق سنة من الهدوء والاطمئنان، وأخلو إلى ذاتى التى كانت المشاغل المتصلة تفرق بينى وبينها طوال السنوات الأخيرة.

ولكنى وجدت التلغراف يطلب منى أن أعود من فورى وأن أستعد للسفر إلى ليبيا تواً.

ليبيا؟! أى نعم، لقد تذكرت عند ذلك أنى كنت تلقيت دعوة من الحكومة الليبية لأكون مستشاراً لوزارة معارفها. ولكن أهكذا

اقطع رحلتى قبل بدئها وأحرم نفسى من أمنيتها العزيزة التى كنت أتمنى أن تكون جائزتي بعد طول كدى؟ كنت بلغت سن الستين منذ سنتين، وطالما حدثت نفسى وأنا اقترب من هذه السن بأننى سوف أحل عنها قيود الوظيفة وأعيش ما قُدر لى فى الحياة، من بعد، حراً أنطلق كما أريد واتفرغ لما أريد. طالما تطلعت إلى شهر يوليه سنة ١٩٥٣ كما يتطلّع التلميذ إلى بداية إجازته المقبلة، وكنت أسبح مع خيالى فى مسارحه فى الآفاق، مشغوفاً بما يختفى وراء ضباب المجهول من جولات سحرية. ولكن هذه الإجازة لم تتحقق، لأن وزارة التربية والتعليم رأت أن أبقى فى خدمتها سنتين أخريين، وكان هذا أحب إلى من استعجال راحتى. وكنت بامتداد خدمتى أعظم سروراً من كل ما ابتهجت به فى سبحات خيالى، إذ شعرت بأن أمامى فى خدمة التعليم مع الثورة آفاق أكثر سحراً من جولاتى الحرة تحت غلالة المجهول.

ولكن مدة السنتين كانت تقترب من نهايتها وأنا اتطلع إلى غفوة الراحة فى لبنان، وما كان شيء أحب إلىّ من أن أستسلم لنسمات الجبل، وأملأ صدرى من عبيرها الصنوبرى عقب الشوط الطويل الذى فرغت منه. فمالى أُدعى إلى نفض يدى من هذه الأمنية لأعود مسرعا إلى القاهرة فى عز حرها وأنا عند

سفح لبنان؟ ثم ليبيا! عند ذلك فقط شعرت بغمرة من الحنق على نفسي. كيف أفكر في إعادة القيد إلى معصمي؟ كيف رضيت بأن أستمع إلى من يطلب مني أن أستمر في خدمة الوظائف بعد أن بلغت الثانية والستين! وأين؟ في ليبيا؟ إنني لم أخرج من القاهرة إلا بضع سنين كنت في أثنائها شابا، ومع ذلك فقد كنت دائم القلق إلى العودة لمسقط رأسي. أأغادر إذن قاهرتي بعد أن صرت شيخا؟ وماذا أفعل بأسرتي وأبنائي؟ لئن كان أبناء مصر معروفين بمرض الحنين إلى موطنهم فإنني من أشد أبناء مصر تورطا في ذلك المرض المتوطن. ولئن كان في الآباء عامة نقطة ضعف نحو أبنائهم وأهلهم فإن نقط ضعفي تشبه في تعدادها نجوم السماء. فكيف أعود إلى القاهرة فوراً لاستعد للسفر إلى ليبيا؟ وقلت في نفسي رداً على هذا السؤال قولا طويلا كانت آخر كلمة فيه «هذا مستحيل!» وصعدت إلى غرفتي في الفندق عازماً كل العزم على أن أبدأ من ساعتي في الطريق المؤدي إلى (بيت موسى) وأخذت أعد حقائبي.

وكانت بين يدي أوراق أردت أن أضعها في مكانها ولم أدر في تلك اللحظة من اضطرابي أين أضعها. وسألت نفسي أهي تستحق أن أحتفظ بها؟ وفتحتها واحدة بعد واحدة لأمزق منها ما لا حاجة بي إلى الابقاء عليه وبدأت أقرأ، ثم أمزق أو أقرأ ثم

أضع جانبا. وفتحت مجموعة مدبّسة من الأوراق طامعاً أن تكون مما لا يستحق الحفظ حتى أتخفف منها، وقرأت أول فقرة في الصفحة الأولى:

«نؤمن بأن الشعوب العربية في شتى أقطار العروبة تكّون أمة واحدة..» تلك هى التوصيات التى آمنت بها مع أعضاء المؤتمر، وكنت من بين من عُهد إليهم بكتابة صورتها الأولى لتعرض على الاعضاء، فأنا أؤمن بأننى من شعب عربى تجمعه بالشعوب العربية الأخرى وحدة شاملة وتاريخ شامل وجهاد من أجل آمال شاملة.

ووضعت مجموعة الأوراق فى رفق على المنضدة التى أمامى وجلست حيناً ساهما. ثم قمت بعد لحظات بغير أن أفكر فى خلع ملابسى للراحة القصيرة المعتادة بعد الغذاء. وذهبت من ساعتى لأحجز لنفسى مكانا فى الطائرة التى تسافر فى الغد إلى القاهرة، وكنت أشعر بشىء من القلق خوفا ألا أجد بها مكاناً.

وفى التاسع والعشرين من شهر أغسطس كانت الطائرة تحملنى عبر الحدود الغربية إلى آفاق تمتد إلى ما لا نهاية له من الزرقة عن يمين، تمتزج فيها قبة السماء الصافية بساحة البحر الأبيض الساجية، ولا نهاية أخرى من الصفرة عن يسار تمتزج

فيها أشعة الشمس الذهبية والرمال التى كانت منذ فجر الإنسانية «جارة الوادى» وها أنا أنظر الآن إلى ورائى، فأشعر أنى بعد أن أقمت فى ليبيا عامين ونصف عام، كأنى كنت فى جولة من تلك الجولات السحرية التى طالما كنت أتطلع إليها وأسبح مع خيالى فى آفاقها، وإذا كنت الآن أبدأ فى كتابة هذه الخواطر التى بعثتها إقامتى فى ليبيا، فذلك ما يفعله السائح وهو يكتب عما يقع فى نفسه خلال رحلته، حتى يستطيع بعد أن يعود منها أن يستعيد استمتاعه باللحظات الموسيقية التى مرت به. فأنا فى هذا الحديث الذى أكتبه الآن أرجو أن أدخر (البوما) لعلى أعود فيما بعد إليه وأقلب صفحاته لأعود إلى معاهد رحلتى فى الخيال وتكون سعادتى أعمق وأصفى لو كانت صور هذا الإلبوم تبعث فى نفس من يطلع عليها صدى من الهزة التى كانت تترنم بها نفسى.

كان ظل الطائرة يدب على الرمال الصفراء تحت عينيّ وأنا أطل من النافذة الصغيرة التى إلي يمينى، وذلك بعد أن خلّفنا وراءنا تلك الرقعة الخضراء العزيزة التى ينساب فى وسطها النهر الخالد، تلك اللوحة العبقرية التى أبدعها الفنان الأزلى. وكلما تأملت دبيب ظل الطائرة من تحتى، سبح بى الفكر وراء القرون الخالية عبر ثلاثة عشر قرناً عندما كان عمرو بن العاص فى شرذمته الصغيرة يعبر فوق تلك الرمال خطوة خطوة، ليرفع لواء العرب فوق آفاق مجهولة جديدة، لم تطأها من قبل سنابك خيوله الضامرة. وكنت أسائل نفسى فى أثناء ذلك عن تلك الأرض التى ستحملنى الطائرة إليها، وأحاول أن أجيب عن هذا التساؤل بما عرفته عنها من قبل. مما سمعته أو قرأته، فلا أكاد أجد فى ذلك ما يقرّب إلى ذهنى صورة من الصور يستطيع أن يتمثلها، اللهم إلا خيالا غامضا من صحراء مترامية الأطراف، تشقها أودية جرداء، كان يقبع فيها المجاهدون ليقاتلوا قتال المستيئس أمام قوى الطليان الغاشمة. ولم يخل قلبى من شعور بالأسف والخجل لهذه الجهالة الشديدة، أتكون ليبيا جارة الوادى التى أنا ذاهب إليها ولا أكاد أعرف عنها إلا ذلك النزر اليسير الذى لا يحمل إليّ منها صورة ولو ضئيلة؟ أليست هى

الأرض التي عرفها القدماء من أهل مصر منذ ألوف السنين، والتي شاركت في الدفاع عن مصر مئات من السنين؟ أليست هي التي تشابك مصيرها في القرون الطويلة الماضية مع مصير بلاد العروبة كافة وتمازجت دماء أهلها بدماء أهل تلك البلاد جميعا؟، وتمثلت لي في تلك الساعات القليلة التي كانت الطائرة تثب بي فيها في جوف الفضاء نحو ليبيا، مأساة تاريخ الأمة العربية كأنني أشهدها فوق مسرح. فقد كانت الشعوب العربية كأخوة انقطع ما بينهم وجهل كل منهم عن إخوته كيف يصبحون وكيف يمسون! لأن كلا منهم مشغول بما ينصب على رأسه من الكوارث، وبما يجاهد فيه من أجل الخلاص من كوارثه. ولم يكن أحدهم يملك للآخرين غير دمعة من الأسى يزرفها عندما تصل إليه انباء ما حل بهم من النكبات، إذ لم يكن أحدهم يقدر على أن يمد يده إلى سواه. وكيف يقوى من يغمره الموج الجبار على أن يمد يده إلى أخيه الذي يشرف على الهلاك بين الأمواج على مقربة منه؟ عند ذلك تزاحمت الرؤى أمام عينيّ وتزاحمت المشاعر في صدري، فتذكرت من الأحداث ما كان انطوى في أعماق المحيط المائج الذي اضطربت عليه أحوال هذا الشرق الأدنى في مدة نصف قرن مظلم. تذكرت أحزان الشباب الأول عندما بلغت مسامعنا أصداء انفجارات القنابل الإيطالية على سواحل

طرابلس فى سنة ١٩١١ وما أحدثته فينا تلك الأحزان من انفجارات عاطفية كان يزيدها قسوة أننا لم نستطع أن نتحرك ولا أن نمد يداً نحو إخواننا وراء الصحراء، فقد كانت جيوش الانجليز جاثمة فوق مصر مثل صخرة ضخمة فوق جريح مكبل اليدين والقدمين. فلم نملك عند ذلك فى مواساة إخواننا سوى أن نرسل من صدورنا أنيناً حزيناً ونرسل من أعيننا دموعاً سخينة. وتسلل بعض أبناء مصر ليشاركوا فى الدفاع عن أرض ليبيا، وكان عزاؤنا الوحيد فى عجزنا أن نتنسم أخبار الجهاد ونصدق ما يصوره لنا الأمل من الإنتصار.

«ثم غمرت الحرب العالمية أقطار الأرض بسيل من النيران والدماء، وشغل أهل مصر بمأساة أخرى كانت أشد فجيعة وهولاً. فقد تحطمت الدولة العثمانية التى كانت، على ما فيها من ضعف وفساد، هى البقية الباقية من أعلام الهلال. وكنا ونحن فى غرارة الشباب نستمع إلى ما يقولون ونعجب لما يقولون، ولكنا كنا نشعر بالصخرة الضخمة الجاثمة فوق الجريح المكبل اليدين والقدمين. كانوا يقولون إنها ثورة العرب على طغيان الأتراك، وإن الذى ننتظره بعد أن تضع الحرب أوزارها، أن يستعيد العرب حريتهم ويعود علم الهلال خفاقا فوق ديارهم. غير أن ضمائرنا عند ذلك كانت مثل ضمائر الأطفال لا تعرف

النفاق ولا الخداع، فلم نصدق ما سمعناه من هذه الأقوال ولكنا لم نملك إلا أن نرسل من صدورنا أنيناً حزيناً وأن نذرف من أعيننا دمعاً سخيناً. ثم وضعت الحرب أوزارها بعد أن دخل القائد البريطانى بيت المقدس دخول الصليبى المنتصر وانقشع غبار الغموض عن الحقائق، فإذا الأمة العربية تخر صريعة على أيدى الحلفاء الذين نصرتهم على العثمانيين ثم قُطعت أوصالها وأُهدرت كرامتها وغمرها اليأس فى ظلام دامس. عند ذلك نسينا كما نسيت الأمة العربية جميعها مصاب ليبيا السابق، لأن الطعنة الجديدة التى أصابت قلبها أذهلتها عن كل الجراح التى سبق أن أصابتها. وهكذا مرت فترة عشرين عاما بعد الحرب العالمية الأولى كانت حياة العروبة مهددة بالفناء، وكان جهاد الشعوب للمحافظة على حياتها أشبه شىء بمجاهدة الفلول المتفرقة أمام قوى جبارة بعد أن فرقت الهزيمة الطاحنة جمعها. وفى هذه الفترة اليائسة سمعنا بمصرع شهيد العروبة «عمر المختار» كما يسمع المحارب فى الفلول المتفرقة أن بطلاً آخر قد استشهد. وكان مما زاد هذه الكارثة هولاً أن الشهيد المختار كان آخر الأبطال الذين رفعوا العلم فى فلول المعركة الخاسرة.

ثم اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية. وعادت سيول الدماء والنيران تغمر العالم كله وتغمر أقطار العروبة وفلول المعركة

الأولى ماتزال دائرة فيها، ولكنها كانت دائرة طي الخفاء في أعماق الصدور.

وكما تنهار الجذوع الضخمة متحطمة كالجبال المندكة عندما يلتهم اللهيب الجهنمي أشجار الغابة الكثيفة، خرت فرنسا وهي مدججة بسلاحها وصُرعت إيطاليا وظاعت المانيا العملاقة. ثم خرجت بريطانيا المنتصرة تجرر أعضاءها المحطمة. ثم ما هو إلا قليل بعد أن خمدت نار الحرب الفظيعة حتى عرضت أمام الأنظار تلك المهزلة المأساة - حرب فلسطين.

ولكن العالم شهد بعد ذلك أعجب مفاجأة، وهي مفاجأة تشبه ما تعرضه رؤى الأحلام بغير مقدمات ظاهرة فمن وراء الدخان الذي يلف جو العالم في أعقاب هذه الحريق الهائلة بدأت تظهر أشباح جديدة، ثم أخذت هذه الأشباح تتجسم وينقشع عن شخصها الدخان القاتم شيئا بعد شيء، فإذا عالم جديد يتخلّق ويتشكّل، كما تتخلّق الفراشة في جوف الشرنقة ثم تشق غلافها فجأة. وإذا خريطة العالم تفقد ألوانها الأولى وتحل محلها ألوانا أخرى لا عهد للناس بها: روسيا - الصين الشعبية - اندونيسيا - بورما - سيلان - الهند - باكستان، وإذا الشرق الأدنى يهتز فجأة بعد الهزيمة المنكرة وتبدأ قومة سوريا ومصر والسودان وليبيا ثم تونس والمغرب العربي وقفت فرنسا الغاشمة حائرة

عاجزة أمام ثورة الجزائر الباسلة. ومازال الخريطة تتغير وتظهر ألوان أخرى متجددة حتى فى أحشاء أفريقيا.

كانت هذه الشعوب جميعا مكبّلة اليدين والقدمين ومن فوقها تجثم الصخرة العاتية - صخرة الاستعمار، فإذا انهارت الصخرة عنها هبت مع حزنها المكبوت وغضبها المكتوم فحطمت قيودها وملأت صدرها من الهواء الطلق - وهيهات للصخرة العاتية التى انحدرت أن تقاوم قانون الطبيعة وتزحف إليها لتجثم فوقها مرة أخرى.

وتنبهت من السبحة البعيدة عندما شعرت بالطائرة تضطرب اضطرابا عنيفا مع تيارات الهواء العاصفة فوق الجبل الأخضر. ونظرت من النافذة نحو البقع الخضراء التى ترّقط محيط الرمال كأنها نقوش وشم متناثرة ولم تلبث الطائرة أن أخذت تهبط لتستقبل مطار بنغازى.

ولأول مرة وضعت قدمى على أرض ليبيا عندما هبطت من الطائرة لأنتظر استئناف الطائرة لرحلتها نحو طرابلس. وفى تلك اللحظة تمثلت لى الحقيقة التى كنت أسبح معها فى الخيال وأنا فوق متن الهواء. كان هناك الجندى الليبى الذى يستقبل ركاب الطائرة، وفى ملامح وجهه رأيت أول ملامح ليبيا. كان وجهه ينطق بالجد والصرامة، إذ سألنى قائلا: «إلى أين»، ناطقاً

بلهجة عربية مألوفة عندى لأنى طالما سمعت مثلها فى صباى فى أقليم البحيرة بمصر، فأجبته بلهجتى المصرية: «إلى طرابلس»! وتبسمت وأنا أقول فى نفسى أنى لم أبعد عن بلادى على رغم هذه الأميال الطويلة التى قطعتها، وانحنى الرجل قليلا فى أدب ولكنه لم يبتسم وأشار لى بيده أن أمضى فى سبيلى نحو استراحة المطار.. ولكن وجهه إذا كان ينطق بالجد فإن قساوته المتحفظة كانت تقول: مرحبا يا أخى.

وقد استطعت أن أفهم فيما بعد سر تلك الصرامة التى على وجه هذا الليبى الأول الذى لقينى أول وهلة فى المطار بعد أن أقمت فى البلاد ثلاث سنوات، ذلك هو الجهاد القاسى الطويل الذى خاض الشعب الليبى غماره طوال ثلاثين سنة مع قوى طاغية لا تعرف الرحمه ولا الهواده – فقد خلقت فيه قسوة هذا الجهاد المرير أثراً لا يسهل للأيام أن تزيله من الأفئدة، كما خلفت فى الوجوه تلك، شارته المتحفظة التى تنم عن رجولة متحفزة متماسكة.

فلأدع هذا الحديث عما دار فى نفسى وما تمثل لى فى سبحتى، ولأحاول أن أعرض على القارئ صورة ولو ضئيلة مما انطبع فى ذهنى من أرض ليبيا وشعبها، وما اتصل بى من أخبارها فى مدة السنوات الثلاث التى قضيتها فيها.

لا يسهل على المصرى أن يتمثل الصورة الحقيقية لهذه البلاد التى تجاور مصر وتعاملها منذ أقدم العصور إلى اليوم، مع أنها ملاصقة لها مماسة لأرضها على طول آلاف الأميال، تبدأ عند البحر المتوسط وتنتهى فى حدود السودان. فالمصرى يعيش فى واديه المزدحم بالقرى، لائذاً بأحضان نيله العظيم لا يكاد ينتقل من قرية إلا إلى قرية أخرى، كأن المصرى يعيش فى مدينة متصلة ذات أحياء متناثرة. فإذا هو خرج من واديه الأخضر لم يجد غير تلال جرداء ورمال مترامية الأطراف لا يكاد يعيش فيها كائن حى من نبات أو حيوان. فالصحراء عنده أرض مرهوبة لا حاجة له بها ولا يأتى إليه منها إلا رياح السموم الرملية. وكانت الصحراء مقرونة فى أذهان المصريين القدماء بإله الشر (ست) على حين كان الوادى وما فيه من خير وبركة مقترنا بإله الخير والبر (أوزيريس). ولقد جاء أجدادنا العرب حقا من الصحراء، وكانوا يألفونها من قبل مجيئهم إلى مصر، ومنذ حلوا بمصر لم يقطعوا ما بينهم وبين الصحراء ولكنهم اكتفوا فى أول الأمر بالنزول فى أكنافها التى تذكرهم بها، فنزلوا فى الحوف الشرقى والحوف الغربى وعلى جانبى الوادى فى الصعيد، غير أنهم لم يلبثوا أن امتزج أكثرهم امتزاجاً كاملا فى أهل مصر وأقاموا فى القرى، فلا نستطيع اليوم أن نميز بين الدماء الممتزجة، أو لا

نكاد نستطيع ذلك، إلا فى أحوال القبائل التى آثرت البقاء فى أكناف الوادى وما تزال بها إلى اليوم. فالملايين العديدة من أهل مصر لا تعرف الصحراء، ولا تخرج إليها فى حاجة من حاجاتها، إلا أن يكون ذلك فى بقاع محدودة يقيم فيها عدد قليل منهم، فى مثل سيناء أو الواحات الغربية أو بعض شواطئ البحر الأحمر. بل لقد يمكن القول أن الملايين التى تعيش فى قرى الوادى لا تكاد تعرف شيئا عن هذه البقاع المبعثرة فى الصحراء من أرض مصر، ويندر أن يخرج منهم أحد للتعرف إليها. وما تزال الصلة منقطعة بين الوادى وبين تلك الأطراف البعيدة، فلا يكاد الراغب فى الاستطلاع يجد وسيلة للذهاب إليها، فالطرق فى الصحراء لا تزيد على مجارى السيول ومعالم طرق القوافل القديمة، ولا يجد فيها السائر ستراً يستظل به إن أراد النزول، ولا محطة يموّن منها إذا نفذ بنزين سيارته أو يطلب منها إصلاحاً لها إذا أصابها خلل، وما أكثر ما تتعرض السيارات فى الصحراء إلى الخلل من عثرات الطريق الوعرة. ولقد كنا نخرج أحياناً فى أيام شبابنا إلى بعض الأماكن الأثرية فى الصحراء مثل دير سنت كاترين فى سينا أو دير سنت انطون فى جنوب السويس فكنا نعد خروجنا مغامرة شديدة، وماتزال صورة هذه الرحلات عالقة فى أذهاننا إلى اليوم بما

فيها من سحر المخاطرة والمغامرة فالحياة فى وادى النيل قد أنست المصريين الصحراء مع أنها أصلهم - سواء فى ذلك أصلهم القديم منذ أيام القدامى أو أصلهم الحديث منذ أيام العرب، وأفضى هذا النسيان إلى قطع الصلة الروحية بينهم وبينها حتى صارت بالنسبة إليهم رهيبة كريهة.

والصحراء تحيط بأرض الوادى من شرقها ومن غربها فأينما خرج المصرى من واديه واجهته هذه الصحراء الجهمة التى يرهبها، فهو لذلك لا يحب الخروج من أرضه الخضراء، حتى أنه عرف بكراهته للسير فى البلاد وإيثاره الارتباط بموطنه الذى نشأ فيه، فإذا كان المصرى لا يعرف شيئاً أولا يكاد يعرف شيئا عن جارته ليبيا، فما هذا إلا لأنه لا يعرف صحراءه ولا يتعداها إلى ما وراءها، ولا يجد من نفسه إقبالا على التعرف إليها. وقد يخيل إلى الكثيرين من أهل مصر إن ما وراء صحراءهم الجهمة ما هو إلا استمرار لها، وأن أرض ليبيا كلها هى الأفق الغربى من ذلك المحيط الرملى الذى تطالعهم شواطئة الوعرة كلما وقفوا على حافة الصحراء. ولكن ما أبعد الحقيقة مما يتصوره هؤلاء ولعلى استطيع أن أضمن هذه السطور ما ينقل إلى قرائها صورة تشبه ما وقعت عليه عيناى فى مدة السنوات الثلاث التى أقمتها فى بلاد ليبيا - من أرضها ومائها ونباتها وأهلها، وإن

كنت أراه من واجبى أن أقول صريحا أننى لم أعرف إلا طرفا من كل ذلك فى هذه المدة الطويلة. فليس يقدر على التعريف بموطن من المواطن غير أهله الذين نشأوا فيه وخبروا أسراره واطلعوا عليه وعلى الحياة فيه من داخل كيانه لا من خارج ظاهره. غير أنى وجدت مع ذلك من واجبى أن أكتب هذه الفصول كتذكار لإقامتى الطويلة فى بلاد أحببتها وقدرت ما امتعتنى به من برها ومودة الأصدقاء الكثيرين الذين اكتسبتهم فيها، لعل ما أكتبه فيها يُعرّف أبناء وطنى الصغير بقطعة عزيزة من الوطن العربى الكبير - ليبيا - جارة الوادى.

أرض ليبيا :

يبدأ القادم من مصر فى الصعود إلى هضبة ليبيا الساحلية منذ أن يترك السلوم. وسواء كان اسم هذا الثغر الغربى مشتق من لفظه السلّم – والليبيون يسمونه السلوم – أو كان ذلك اسما قديما، فإن الصاعد فى درجات المنحدر المدرج لا يسعه إلا أن يفرق بين ظهر السلوم ودرجات السلم. وتمتد هذه الهضبة الساحلية نحو أربعمائة كيلو متر حتى تنتهى قبل مدينة بنغازى بنحو سبعين كيلو متر. ويبلغ عرضها بين العشرين والخمسين كيلو متر يختلف فيها الارتفاع ما بين تسعمائة متر فوق البحر إلى مائتين مما يلى الجنوب. فالهضبة تواجه البحر بجبهتها العالية تاركة بينها وبينه ساحلاً ضيقاً وتمد أذرعاً لها حتى تلاصق الساحل فى كثير من الجهات. وهذا ما جعل الطريق الساحلى من مصر إلى ليبيا يخترق الهضبة إذ لا منفذ له على سيف البحر. وهذه الهضبة تشبه فى أولها أرض صحراء مصر الصفراء لا يكاد ينبت فيها شىء ثم لا تلبث أن تتخذ صوراً جديدة ويزداد فيها النبات شيئا بعد شىء، حتى تصير أرضاً متموجة خضراء كثيرة المروج والعيون تشقها أودية عميقة ذات أشجار دائمة الخضرة. وقد استرعت هذه الخضرة أنظار الاجداد العرب عندما أقبلوا من صحراء مصر فى سيرهم نحو

الغرب فأطلقوا على تلك الهضبة كلها اسم الجبل الأخضر الذى تحمله اليوم. ويتدرج الجبل الأخضر إلى الغرب فيفضى إلى سهل ساحلى فسيح تتوسطه العاصمة الشرقية - بنغازى - على شاطئ البحر الأبيض الذى ينعطف هناك فى ساحل طويل ممتد من الشمال الجنوبى قبل أن يواصل سيره نحو الغرب. وتمتد أرض ليبيا بعد ذلك إزاء الساحل فى سهل فسيح من الرمال لا يكاد يعترضه شىء يغير من رتابته حتى نبلغ العاصمة الغربية - طرابلس، ثم تمتد بعدها فى هذا السهل المنبسط حتى حدودها الغربية من قبل تونس.

فالسهل الساحلى يمتد إلى نحو ألف وثلثمائة كيلو متر ما بين بنغازى والحدود الغربية، يمتد فيه طريق بديع تجرى عليه السيارات العامة - ويسمونها الحافلات - فتقطع المسافة بين العاصمة الشرقية والغربية فى نحو العشرين ساعة، بأجر قليل يتيح للسائر أن يرى بلاد الساحل كلها وهى وجهة ليبيا جميعا.

ويمتد السهل من سيف البحر إلى داخل البلاد متدرجاً فى الصعود حتى يبلغ أقصى ارتفاعه فى كتلة جبلية محورها جبال التبستى عند الحدود التى تفصل بين ليبيا والسودان العربى. غير أن هناك كتلة جبلية غربية متميزة بنفسها كأنها كفة الميزان الأخرى التى توازن فى الغرب هضبة الجبل الأخضر فى الشرق

وهى كتلة جبل نفوسه القديم ويعرف الدوم بإقليم الجبل أو جبل غريان نسبه إلى أكبر مدنه. وليس اسم غريان بالغريب عنا فإنها بعثت إلى مصر بعض أبنائها الذين ما يزالون إلى اليوم بالأسكندرية يحتفظون بنسبهم إليها. وتمتد هذه الكتلة الجبلية على صورة قوس يرتكز بطرفيه إلى قرب ساحل البحر، فيقع طرفها الشرقى جنوب مدينة الخمس، وهى شرقى مدينة طرابلس بنحو ثمانين كيلو مترا ويقع طرفها الغربى قرب مدينة زوارة على مقربة من الحدود التونسية، وتتجه الكتلة إلى الشمال بمنحدر وعر يصعد قائما كأنه جدار عال ولكنها تتدرج فى الإنحدار نحو الجنوب حتى تمتزج بالصحراء الكبرى. وهاتان الكتلتان الجبليتان هما أهم المشاهد التى تسترعى نظر الزائر فى ليبيا، وهما فى الوقت نفسه من أهم أقاليم ليبيا فى الحياة الحاضرة والتاريخ. فالجبل الأخضر هو برقة، وجبل نفوسة هو طرابلس. هذا ما تدل عليه حوادث التاريخ منذ أقدم العصور إلى اليوم. فهناك على سواحل البحر الأبيض قامت فى الجبل الأخضر أول مدينة تاريخية عندما نزح اليونانيون القدامى من بلادهم لينساحوا فى الأرض على عادتهم كلما ضاقت بهم الحياة فى أرضهم، وماتزال آثارهم مبعثرة على سفح الجبل الأخضر ولا سيما عند مدينة (شحات) وهى (قيرين) القديمة. ولما بسطت

الدولة الرومانية سلطانها على ليبيا، كانت (قيرين) من أهم المدن في عصرهم، وخلفوا بها بعض آثار تمتزج بآثار اليونان تظهر في مجموعها صورة من أوضح الصور التى سجلت عبقرية الإنسان وغروره جنباً إلى جنب. موجات متتالية من البشر تأتى كل منها في عنفوانها ثم تنحسر وتخلف فى تعاقبها طبقات من الآثار يبدو بعضها فوق بعض، تتيح للمتأمل أفانين من المعانى العميقة التى تأخذ بمجامع قلبه. وهناك فى وسط الأطلال المترامية الأطراف، يقوم فندق (شحات) الذى يطل على السهل الساحلى الصامت الذى كان منذ الفين وخمسمائة عام مدينة مزدهرة صاخبة. وعلى نحو عشرين كيلو متر إلى غرب شحات توجد مدينة البيضاء ذات الشهرة العظيمة فى تاريخ ليبيا الحديثة، لأنها النواة الأولى التى ثبتت فيها السنوسية، ففيها أنشئت أول زاوية سنوسية منذ أكثر من مائة عام، عندما حل فيها رجل من أعظم المصلحين الدينيين فى القرن التاسع عشر وهو السيد محمد بن على السنوسى جد أدريس الأول ملك ليبيا فى الوقت الحاضر.

ولا يمكن أن أحيط فى مثل هذا الكتاب بشىء من سيرة ذلك الرجل العظيم ويكفى أن أقول أنه كان من طبقة كبار المصلحين المسلمين الذين نبغوا فى القرن التاسع عشر، عندما كانت الأمة

الإسلامية فى قاع الموجة تحيط بها قوى الاستعمار من كل جانب وتنهش أعضاءها عضواً وراء عضو، وهى سادرة فى جهالتها وغفلتها. وكان من الطبيعى أن تثير هذه الحالة السيئة قلوب النابهين من الافذاذ الذين لم تحطم نفوسهم تلك الظروف العكسية وكان من الطبيعى أيضاً أن يهبوا في كل مكان لينبهوا الأمة الإسلامية إلى ما يحيط بها من الأخطار وعملوا على تحريكها من غفوتها. ولكن إذا كان السيد محمد بن على السنوسى يشارك المصلحين الآخرين فى الدافع الذى دفعهم والظروف التى أنبغتهم والأهداف التى قصدوا إليها، فإنه يختلف عنهم اختلافاً جوهرياً فى شخصيته وفى إسلوبه. كان محمد بن على السنوسى عالما بارعا فى الدين وكان من أكثر العلماء تضلعاً فى فقه مذاهب الإسلام. وكان فوق هذا ممن درس الطرق الصوفية المختلفة وعرف أسرارها وتعمق فلسفتها. وكانت عقيدته ثابته على صخرة، فهو مؤمن إيماناً لا مدخل فيه لتفكير غير إسلامى، على خلاف المصلحين الآخرين من أمثال: جمال الدين الأفغانى الذى كان مصلحاً اجتماعياً قبل أن يكون رائداً دينيا. كان الدين عند السيد محمد بن على السنوسى نوراً ينبعث من مشكاة فيها مصباح، فلا يدخل إلى قلبه شىء آخر غيره، ولا يتجه فى حياته نحو شىء آخر غيره على حين كان

جمال الدين وكثير من المصلحين الآخرين يستمدون أنوارهم من منابع شتى، فكانت لهم من جراء ذلك وجهات إلى طرق شتى.

وعاش السيد محمد بن علي السنوسي في ناحية البيضاء وهناك ولد له ولده الأكبر السيد محمد المهدى وكان ميلاده في مكان يمكننا أن نراه في طرف من الأطراف بين مدينة البيضاء ومدينة (مسّه). وهو لا يزيد على قاعة منحوته في الصخر، وأغلب الظن أنها كانت مقبرة قديمة من مقابر اليونان الذين عمروا تلك الأرض من ألوف السنين.

وتاريخ حياة السيد محمد بن علي السنوسي حافل بالحركة كثير التقلبات فهو من أصل جزائرى وطلب العلم في معاهد شتى بين جامع القرويين ومكة. واستطاع في مدة حياته الطويلة أن ينشئ طريقة خاصة به - طريقة لا تنافس طريقة أخرى ولا تشبه طريقة أخرى من الطرق الصوفية المعاصرة. وتزايد عدد أتباعه وكان ينشئ الزوايا لهم على طريقه تلقائية غير متكلفة، فانتشرت زواياه في اتجاه الشرق العربي من مكة إلى حدود تونس والجزائر. وقد استمر ولده محمد المهدى على سنته في إنشاء الزوايا حتى بلغت نحو مائة وخمسين زاوية منها نحو الثلث في برقة، وكان للحركة السنوسية أثر عظيم في حياة الأمة الإسلامية عامة وفي حياة ليبيا خاصة، فإليها يرجع الفضل في

إثارة الوعى القومى فى القبائل التي صمدت لمقاومة الإيطاليين عندما أغاروا على ليبيا بعد أكثر من نصف قرن من وفاة منشيء الطريقة، غير أن السيد محمد بن على السنوسى لم يُدفن فى البيضاء بل فى واحة جغبوب، التى كانت داخلة فى اقليم مصر إلى عام ١٩٢٥، حتى نزل عنها (زيور باشا) لايطاليا أيام وزارته الهزيلة، وفي جوار مدينة البيضاء قبر سيدى رافع الأنصارى الصحابى، ولعل جوار هذا الرجل الصالح كان من أسباب اختيار السنوسى الكبير للإقامة فى البيضاء. ويمكن أن نعتبر (قيرين) أو البيضاء مركزاً طبيعياً لأقليم الجبل، فإلى الشرق والغرب والجنوب تمتد شعاب الجبل وأوديته لتتصل بالبحر فى وسط قوس يشبه الهلال، وتقع أعلى قمم الجبل في هذه الكتلة التى تزخر بالأمطار فى فصل الشتاء. وتتفجر الينابيع العذبة. من أطرافها. ولعل عيون البيضاء وشحات وما يجاورها أعزب ينابيع المياه في كل اقليم برقة. والمناظر الطبيعية المحيطة بشحات والبيضاء أجمل مناظر الجبل كافة، ومن أهم المشاهد الجديرة بالزيارة فى دائرتها (رأس الهلال) وينبوعه المتدفق ووادى الكوف أو وادى الكهوف حيث المناظر الخلابة من سفوح وعرة خضر تكسوها أشجار صنوبرية فى أعلاها ظلال ذات ألوان سحرية حتى تهبط إلى بطن الوادى الذى تزدحم فيه

الأشجار الدائمة الخضرة والزيتون البرى والحشائش النضرة. فإذا انفسح الوادى وترامت عنه الجوانب الصخرية انبسطت فيه مروج خصبة إذا هبط المطر عليها اهتزت وريت وانبتت من كل زوج بهيج، وعلى ساحل البحر أسفل شحات (قيرينى) مدينة رشيقة وهى (ابولونيا) القديمة واسمها سوسة .

غير أنى أقول من بعد هذا أنه إذا كان فى ذلك الاقليم جمال أو نبات فإن الفضل فيه لله وحده وليس للإنسان فى برقة يد فى مساعدة الطبيعة على الازدهار. فهناك ثروة من المناظر وثروة أخرى من الخصب واعتدال الجو غير أنها ثروة ما تزال دفينة، تنتظر الأيدى المصلحة التى تفيد منها وتفيد بها. ففى جبال لبنان بقاع لا تمتاز بروعة طبيعتها ولا بخصوبة أرضها ولا باعتدال جوها عن ذلك الاقليم الليبى، غير أن كل شبر فى لبنان يشهد بأن يد الإنسان قد أبدعت وأنتجت على حين أن كل شبر فى أرض الجبل الأخضر يصرخ بالحاجة الشديدة إلى يد الإنسان وإبداعها وإنتاجها.

ولو تعبأ لهذه الأرض من أبنائها من يتعهدها لصارت جنة فيحاء، ومنتزهاً من أبدع الأرجاء يجمع بين اعتدال الجو واتساع الرقعة وخصب التربة ومعاهد الآثار القديمة التى ينفسح فيها مجال الفكر والنفس إلى جانب متعة الجسم والحس

غير أن ولاية برقة اختارت هذا الموقع الممتاز لتجعل فيه مستشفى للأمراض الصدرية، ولا أظن ذلك يتفق مع رغبتها فى العمل على جعل شحات متنزهاً سياحياً. وأهم المدن فى شرقى شحات مدينة (درنة) ذات العيون الدافقة ففيها (عين مارة) التى تتدفق مياهها طوال العام وتفيض مياهها حتى تصل إلى البحر، وهى ثانى مدن برقة فى الصحراء ومن أكثرها عمرانا، وتمتد مساكنها على السفح المواجه للبحر فى منظر رائق بما يتخللها من الحدائق المثمرة. وهى مشهورة بفاكهتها ولا سيما الموز الذى لا يكاد يوجد فى ليبيا فى مكان آخر سواها. ولكن المقادير التى تثمرها هذه البساتين لا تكاد تكفى إلا لحاجة المدينة وقلما يصدر منها شيء إلى المدن الأخرى.

وإلى شرق درنة من قبل الحدود المصرية مدينة طبرق وهى تشرف على ساحل البحر فى بقعة جيدة الهواء بديعة المنظر، ويختارها الملك ادريس مقاما خاصا لا يكاد يقيم فى غيرها إلا لماماً، واسم طبرق مشهور منذ أيام الحروب الأخيرة فقد ثبتت فى مقاومة الجيوش الإيطالية الجرارة فى الزحف الأول الذى اتجهوا فيه إلى مصر، وكان الفضل فى مقاومتها للفرقة الليبية التى استماتت فى الدفاع عنها. ولكنها سلمت فى الزحف الثانى وكان فيها عشرات الألوف من المدافعين غير الليبيين، فكان ذلك

من مفاخر الشجاعة الليبية. وإلى الغرب من شحات والبيضاء تنشع أودية الجبل فتفسح المجال للمروج الخضراء التى تبلغ غايتها فى السعة عند مدينة (المرج). وهذه المروج الفسيحة الخصبة هى بيدر برقة وكانت منذ القدم معروفة بما تنتجه من القمح والشعير الذى كانت روما تستمد منه ما تطعم به جماهيرها الصاخبة العاطلة.

ولما وضعت إيطاليا يدها على ليبيا كانت تحلم بأن ترد عجلة الزمن إلى الأحقاب البعيدة الماضية لتعيد هذا البيدر إلى سابق عهده فنزعت أرضه من أصحابها وقسمتها قطعا أقامت فى كل قطعة مسكناً ورسمت خطة جريئة شاملة ترمى إلى استغلال ذلك الاقليم استغلالاً منظما وقدرت أن تبعث إليه كما قيل ثلاثة ملايين من أبنائها ليحولوه إلى قطعة من إيطاليا.

ولا يسع المتجول فى هذا الاقليم خاصة وفى سائر أنحاء الجبل الأخضر عامة إلا أن يعجب بما قام به الايطاليون هناك من ضروب التعمير ما بين طرق ممهدة ومدن منتشره أقيمت على أنماط هندسية بديعة، ونسقت فيها المساكن والأسواق والكنائس والمدارس بحيث تكون فى كل بقعة من البقاع مجموعة عمرانية متكاملة. غير أنه لا يستطيع مع هذا إلا أنه يتأمل ما كان ينطوى تحت تلك الخطة فإن الأرض نزعت من أصحابها

عنوة، وكانت الخطة قائمة على إجلاء العرب عنها وإحلال الإيطاليين محلهم لينعموا بخيراتها ويستذلوا من كانوا سادة فيها. وليست ايطاليا هى الوحيدة فى مثل هذا المسلك بين بلاد أوربا بل شأنها فى ذلك مثل شأن سائر البلاد الاستعمارية مثل انجلترا وفرنسا ومثل بلجيكا وهولنده، ولم تكن المانيا على خلاف فى ذلك عندما كانت لها مستعمرات فى افريقيا. فالأنانية والجشع والقسوة صفات عامة اتصف بها المستعمرون جميعا فى كل البلاد التى أوقعها سوء حظها تحت وطأة الإستعمار سواء فى ذلك بلاد آسيا وافريقيا وامريكا، ولكن هذا الجشع الإستعمارى كان دائما مايزال يؤدى إلى تقوية روح المقاومة فى الشعوب التى تصاب بويلاته، وكانت ليبيا عامة وبرقة خاصة من أشد الشعوب شعوراً بما أصابها من نكبات الاستعمار، بالإضافة إلى ما يمتاز به شعب ليبيا منذ أقدم العصور من الحرص على حريته وأباء الخضوع لسيطرة كل من يحاول التحكم فيه. وسنعود إلى الحديث عن جهاد برقة في موضع آخر فحسبنا أن نقول هنا إن الإصلاح الذى قامت به ايطاليا فى أرض الجبل الأخضر كان قائما على رمال منهارة لأنه كان قائما على أساس الأنانية والجشع والقسوة. ونقول بهذه المناسبة أن استعمار الدول القريبة فى كل مكان معرض للمصير الذى آلت

إليه محاولة الاستعمار الايطالى. بل أن موجة الإستعمار قد ارتدت فى عنف كما بدأت فانحسرت كما بدأت فى دفعة جبارة تكاد تعصف بالدول التى بعثتها. لقد انتفضت اندونيسيا فألقت بالإستعمار الهولندى إلى المحيط ونهضت بلاد الهند والقت بالاستعمار البريطانى كما يطرح الفيل جذع الشجرة بخرطومه، وطردت بلاد الصين ما كان يمتص دماءها من طفيليات الساحل، ووخزت بلاد الهند الصينية أعجاز الفرنسيين وخزة شديدة جعلتهم يلوذون بالفرار هلعاً، ولم يبق فى آسيا من آثار الاستعمار إلا بعض حطام يشبه حطام الغابة بعد العاصفة. وما يزال الاستعمار يعانى عقابيل جشعه وأنانيته وقسوته فى القارة الافريقية سواء فى ذلك سواحلها ودواخلها. فالمغرب العربى يدفع عنه الإهانة التى ألحقها به الإستعمار فى غرة من الدهر. والشعب الجزائرى يستبسل فى ثورته ويذيق الاستعمار الفرنسى مرارة غضبته، وغينيا السوداء المستقلة تبرهن برهانا قاطعا على كذب خرافة الألوان، ونيجيريا ذات الحضارة القديمة تستعيد كرامة تمبكتو السحرية، وقبائل افريقيا الوسطى تقض مضاجع الاستعمار البريطانى ولن تلبث أن تخلعه عن أكتافها بعد قليل. وأنه لمن أغرب الغرائب فى طباع الإنسان أن شعوب الغرب هبت منذ أيام كرومر فى انجلترا والثورة الكبرى فى

فرنسا لتحطم أغلال السادة والأمراء وتزيل عهود طغيانهم واستغلالهم لها ثم لم تلبث بعد ذلك أن انساحت فى الأرض لتضع الأغلال فى أعناق الشعوب الأخرى وتمارس فيهم ما ثارت عليه فى بلادها من الطغيان والاستغلال. غير أن الطبيعة البشرية واحدة، وإذا كانت شعوب الغرب قد رفضت الخضوع لطغاتها فإن شعوب الشرق وشعوب افريقيا كذلك ترفض الخضوع للطغاة الذين أتوا إليها لاستعبادها. وإذا كان الطغيان الإستعمارى قد تمكن من السيطرة على تلك الشعوب جنبا من الدهر عندما كانت غافلة أو عندما كانت قليلة الوعى والتجربة، فإنها لم تبعث أن تنبهت من وقع السياط عليها، وثارت فى وجوه معذبيها، وها هى آخذه فى تحطيم أغلالها واحداً بعد واحد.

فلنعد إلى برقة وجبلها الأخضر ومروجها الخضراء، فإن فى الحديث عنها بقية لابد منها. فإذا كان الايطاليون قد أساءوا فى رسم خطتهم الاصلاحية على أساس اغتصاب الأرض من أصحابها وتنحيتهم عنها فإنهم على كل حال قد أبدعوا فى رسم خطتهم. ولو كان الزمن - لاقدر الله - قد امتد بهم هناك لأحالوا سهول الجبل وأوديته إلى جنان عامرة. بل لقد استطاعوا على رغم ما كانوا فيه من مشاغل الحروب وما عانوه فى حروب القبائل العربية، أن يبدأوا فى جنى ثمار غروسهم. فما بال

العرب أصحاب هذه الأرض الخصبة لا ينهضون إلى الإصلاح لأنفسهم كما كان الايطاليون يفعلون من أجل مصلحتهم. أن الحياة نضال مستمر بين الأحياء وإذا كانت الشعوب لا تساير ركب الزمن فى التقدم فإنها تكون عرضة للتخلف عن الركب. ومن يدرى ماذا تكون نتيجة هذا التخلف؟ غير أنه من الواضح الذى لا يحتاج إلى مزيد من البيان أن الشعوب إذا أرادت أن تبدأ عهدا جديدا كانت ملزمة بأن تعيد النظر فى كل ما سبق لها من النظم وأساليب الحياة. لقد كانت النظم القديمة وأساليب الحياة الأولى سبباً فى تعرض أهل البلاد لويلات الاستعمار واستهدافها لمطامع الطامعين، وإذا أرادت ليبيا الحديثة أن تغيّر من وضعها وأن تبدأ حياة جديدة بعيدة عن مخاطر الحياة السابقة، كان عليها أن تعيد النظر فى نظمها القبلّية القديمة، وفى أساليب الحياة البدوية الرتيبة، ولاسيما فيما يتعلق بنظام ملكية الأرض وأساليب الاستثمار، والنظرة إلى الحياة. أن العربى فى برقة يمتاز بذكاء لامع ونفسية حرة صريحة وفيه كبرياء عن الدنايا واعتزاز بالكرامة غير أن ذكاءه مايزال غفلاً لقلة استغلاله. وصراحته وحريته تعوقة عن تقوية التضامن الاجتماعى الضرورى للحياة الحديثة، وكبرياؤه واعتزازه بكرامته تجعله يأنف من ممارسة العمل الضرورى فى الإنتاج، فهو يرى

الإمتهان فى الزراعة والعمل نوعا من الامتهان لما يحسه من كبرياء وكرامة. وليس العربى فى برقة وحيدا فى هذا الاتجاه النفسانى، بل ليس هذا الشعور الذى يملأ نفسه عجيبا منه، فإن التقاليد العربية أو البدوية تحدث الآثار عنها فى كل قطر من الاقطار العربية، غير أن هذه الآثار آخذه فى الزوال شيئا بعد شىء. وجدير بالعرب فى ليبيا أن يسايروا العرب فى الجمهورية العربية (مصر وسوريا). وفى لبنان وفلسطين، فإن الحياه الحاضرة لا تعرف الكبرياء عن العمل ولا تعترف بأن الإمتهان فى الزراعة والصناعة فيه امتهان لكرامة الأكرمين.

ولكن تغير هذه النظم وتلك الأساليب فى الحياة يحتاج إلى شىء من الوقت كما أنه يحتاج إلى انتشار التعليم بين صفوف الشعب وإنشاء معاهد تعليمية حديثة تجارى معاهد العالم المتميز فى اعداد ناشئة البلاد لتحمل مستويات الحياة ومواجهة شئونها بالجد والابتكار. ولمدينة البيضاء حديث خاص بها إذ أن مليك البلاد يوجه إليها التفاتة خاصة. فهناك حيث مقام سيدى رافع وحيث مسقط رأس المهدى والد الملك وحيث أول زاوية للطريقة السنوسية، وهناك حيث يوجد المهد الدينى الأكبر فى البلاد وحيث تكثر الأمطار وتغزر العيون العذبة، وحيث تشرف هضبة الجبل من أعلى رؤوسها على البحر من ناحية الشمال، وعلى الأودية الخصبة ذات الغابات والمراعى النضرة من الغرب

والشرق والجنوب، هناك حيث تجمع ذكريات قديمة وإمكانات كثيرة.

نشأت فكرة إنشاء مدينة عظيمة. والآراء مختلفة في تحبيذ بذل الجهود الاصلاحية والأموال في إنشاء مثل هذه المدينة، كما أن هناك أحاديث كثيرة مختلفة بين الناس في مجالسهم الخاصة حول صلاحية هذه المدينة لتكون مقراً للحكومة.

وليس هذا الحديث ما يعني قراء هذا الكتاب، وحسبنا أن نشير هنا إلى أن إنشاء مثل (البيضاء الجديدة)، كفيل بأن يُكسب هذه المنطقة رونقاً جديداً بها. فهناك على مقربة من البيضاء مناطق سياحية من أبدع ما تخلف عن عصور اليونان والرومان، وهناك من مناظر الطبيعة في الأودية والشواطئ المجاورة، ما يجعل الأقليم صالحاً لرواد السياحة والنزهة، مثل وادي الكهوف وشواطئ سوسة. ومدينة البيضاء تتوسط الجبل على مقربة من أعلى قمم الهضبة وأكثرها أمطاراً، ولاشك أن تعمير مدينة جديدة هناك يزيد من احتمالات الإنتاج الزراعي والصناعي، فيكون في الجبل ثلاث مراكز كبرى تأخذ باطرافه وقلبه وهي درنة والبيضاء والمرج. ولا يسعنا إلا أن نتمنى أن يكون إنشاء هذه المدينة ممكناً ومساعداً على ازدهار الحياة في الجبل الأخضر.

والسواحل الشمالية، محصورة بين الجبل والبحر الأبيض، لا تستند إلا إلى سهل ضيق قليل الخصوبة، والإتصال بينها وبين الهضبة وعر المسالك لشدة انحدار الهضبة نحو البحر. وهذا ما قلل من شأنها مع أن بعضها يمتاز بجماله وحسن موقعه من البحر. ولعل مرسى سوسة هو أليق مواضع ذلك الساحل لسهولة الاتصال به وقربة من شحات والبيضاء. ولبعض مدن هذا الساحل ظروف خاصة تجعلها جديرة بالاهتمام، مثل ميناء طبرق ذات الموقع الحربى المختار، وكان لها شأن عظيم فى الحرب الماضية. وأكبر ما يميزها الآن اختيار مليك البلاد لها لتكون مقرا لإقامته الخاصة فهو يفضل الإقامة بها عن الإقامة فى احدى العاصمتين. ويتحدث الناس فيما بينهم عن السر فى ذلك، فإن ظاهر الأمر لا يزيد على أن جلاله الملك آثر الاقامة فيها لطيب جوها واعتدال حرارتها صيفا وشتاء ولكن هناك من يقول فى ذلك أقوالاً شتى غير هذا، ويعزز هؤلاء أقوالهم بأن الإقامة فى هذه المدينة تحيط بها صعوبات جمة، فالماء يُجلب إليها من بعيد، لقلة مواردها المائية وملوحة ما فيها من الآبار، والمسافة بينها وبين العاصمتين طويلة فهى تبعد عن طرابلس بنحو ألف وأربعمائة كيلو مترا، والمسافة بينها وبين بنغازى تزيد على ثلثمائة كيلو مترا، فإذا ما دعت الضرورة إلى أن يقابل الوزراء

أو الولاة جلالة الملك، كان عليهم أن يقطعوا هذه المسافات الطويلة، بعضها بالطائرة وبعضها فى البر وفى ذلك ما فيه من مشقة. غير أنى سمعت من بعض المتصلين به أنه يؤثر بطبعه النزهة فى الخلوات علي الزحام، ويعزف عن زخارف المدينة وضجيجها، ولا يميل إلى التدخل فى أمور الحكم إلا بما يقتضيه حقه الدستورى، ولهذا يجد فى الإقامة بطبرق ما يوفر له البعد عن كل ما تعزف نفسه عنه.

وميناء طبرق تصلح لأن تكون مرفأ عظيماً ولا سيما للسفن الكبيرة لهذا كانت صالحة لرسو السفن الحربية الضخمة فى حدود ضيقة لبعدها عن مواطن الانتاج والعمران.

وهى مدينة ذات خاصة تمتاز بها إذ أن أهلها أو أكثرهم من أصل كريتلى نزحوا فيما مضى من جزيرة (كريت) عندما نُزعت من الدولة العثمانية ليجدوا الأمان على سواحل ليبيا ومايزال أهل سوسة إلى اليوم يتكلمون بلغتهم الخاصة وماتزال بشرتهم البيضاء وعيونهم الرمادية أو الزرقاء تدل على أنهم ما يزالون يحتفظون بشخصيتهم. وبعض بلاد الساحل مايزال إلى الآن يحمل صدى القرون الماضية مثل (طلميته) التى كان اسمها من قبل (بطلومايس) وهى من إنشاء ملوك البطالسه عندما كان هذا الساحل داخلاً فى حدود دولتهم.

ومن المدن الجديرة بالذكر فى جوار البيضاء مدينة (ماسة) وتمتاز بأنها مستشفى للأمراض العصبية والعقلية ، فإذا قيل عن شخص أنه أُرسل إلى ماسه. كان هذا مثل قولهم فى مصر أن شخصاً أُرسل إلى العباسية أو السراى الصفراء.

وقد حدثت لى يوما حادثة صغيرة عندما كنت أشارك فى الاحتفال بالعيد المئوى للسيد محمد بن على السنوسى الكبير فى مدينة البيضاء وذلك فى سبتمبر عام ١٩٥٦، فقد افتقدت السيارة التى كنت أستقلها فى شدة الزحام عقب انتهاء الاحتفال ووقفت حائراً لا أدرى أين أذهب وكان البيت الذى أنزل فيه على نحو ثلاث كيلو مترات من موضع الإحتفال. وفيما كنت واقفا أتلفت حولى فى حيرة وقفت إلى جانبى سيارة (صندوق) كبيرة وسمعت صوتا ينادينى باسمى فإذا هو طبيب ماسة. الذى رأى دلائل حيرتى على مظهرى فوقف لينجدنى. وتمسك بأن أقضى الليل عنده إذ كان الوقت متأخراً. وسأل رفقائى فى المنزل عنى، حتى عرفوا آخر الأمر أنى ذهبت إلى (ماسه) فجعلونى تلك الليلة هدفا لفكاهاتهم وكان زعيم المداعبة مدير الجامعة الليبية الاستاذ محمود البشتى. فلما كان اليوم التالى استقبلنى جموع المحتفلين بالسؤال عن صحتى وعما اعترانى حتى حُملت إلى (ماسة) وكنت أقص عليهم ما حدث وهم يرددون

ما قيل عنى فى الليلة السابقة.

وتناولنا الغذاء فى فندق شحات، وجلسنا نستريح فى البهو الفسيح. فإذا مدير الجامعة يتجه إلينا وهو يترنح من أثر مرض فجائى أصابه عقب الغداء. وكان معنا طبيب ماسة فلم يجد وسيلة إلى إسعافه إلا بحمله إلى المستشفى حيث قضى الليلة التالية، فوجد الأصدقاء فى هذا الإتفاق العجيب مجالاً لفكاهات أخرى يوجهونها إلى الأستاذ البشتى وكان ذلك جزاء إلهياً عادلاً بالنسبة إليَّ.

وفى الجبل الأخضر (عقبات) فيها شيء من الوعورة، ومما يزيدها عثرات ضيق الطرق وكثرة الثنيات. وأهم هذه، على الترتيب، عقبة السلوم ثم عقبة درنه وآخرها عقبة توكرة وهى فى طرف الجبل من الجانب الغربى. ولكن جمال هذه العقبات يغفر لما فيها من وعورة، وقد أنشأت الولاية (استراحة) عند عقبة توكرة يجد فيها المسافر مراحاً من السير الطويل وحبذا لو كثرت هذه الأركان الظليلة على طول الطريق ولاسيما فى جوار المواضع ذات العيون وهى كثيرة وفيها من الجمال ما يستحق أن يعد ثروة كامنة فى برقة.

ومدينة بنغازى تقع على ساحل البحر والمسافة بينها وبين (توكرة) حوالى سبعين كيلو متراً ليس فيها من المناظر ما يخفف

رتابة السير فى الطريق.

وقد سميت بنغازى كما قيل باسم سيدى غازى وهو ولى مدفون بها، وهى تقوم على مقربة من أطلال المدينة الاغريقية القديمة برنتشي التى لم يكشف البحث عما فيها من الآثار إلى اليوم. وموقع بنغازى محصور بين شاطئ البحر وبين سلسلة من المناقع الملحة، ويمتد ذراع من الميناء إلى جنوبها الغربى فيزيد من تحديد رقعتها.

والميناء تواجه قلب المدينة من الغرب وعندها ينفرج ساحل البحر نحو الجنوب وقد أُنشئ بحذائها طريق بديع فسيح غير أنه لا يزيد على كيلو متر واحد، ثم يغلقه الجمرك من الشمال كما تغلقه حواجز أخرى من الجنوب، ويقع على هذا الكورنيش أكبر فندق فى المدينة وهو فندق البرنتشى، وقد سمى باسم المدينة الاغريقية القديمة التى قامت ببنغازى على مقربة منها، وأما شاطئ البحر الحر فإنه يقع على نحو كيلو مترين من نهاية الكورنيش من ناحية الجنوب، بعد أن يخترق الذاهب إليه براحا خاليا عن يمينه أبنية قديمة تحجب البحر وعن شماله ذراع البحر الذى سبق ذكره. ولذلك كان ذلك الشاطئ الحر قليل الاتصال بالمدينة ولا يكاد أهلها يذهبون إليه مع أنه من أبدع شواطئ البحر الأبيض وأليقها للنزهة والسباحة فى الصيف،

وعلى هذا الشاطئ مجموعة من (الاكشاك) الخشبية تعمر فى الصيف، ويرتادها بعض المقيمين فى بنغازى من الجاليات الأجنبية، وفى طرفه الاقصى (متنزه) بسيط لا يزيد على مربع خشبى فى صدره براح مبلط يحيط به سور من البناء، يتمتع فيه المتنزهون فى الشتاء أكثر من الصيف، إذ أنه مكشوف ومواجه للشمس بعد الظهر، غير أنه مع ذلك ممتع فى ساعات الليل الأولى بعد أن تغيب الشمس وقبل أن يهبط الندى الغزير، وأما البحر من الناحية الأخرى من المدينة فإنه ينفرج نحو الشرق، والساحل.

وقد امتدت المدينة بحكم تنظيمها هذا إلى ناحية الجنوب (من البركة) متخطية نطاق المناقع التى تحيط بها فى طريق طويل يصل ما بين الشمال والجنوب، ولكن التوسع المنتظر للمدينة يتجه نحو الفضاء الفسيح الجنوبى واسمه (الفويهات)، فهناك الأبنية الحديثة والفيلات الأنيقة، ولكن قلة المواصلات وصعوبتها لا تتيح الإقامة فى هذه الناحية إلا لذوى اليسار من الأعيان والامريكان. ولو عنيت بلديه المدينة بتيسير الاتصال بهذا الحى الجديد لنشأ فيه حى أنيق بديع طيب الهواء. وأبدع أنحاء المدينة الأصلية، تقع داخل مربع يمتد خط أضلاعه من الشمال إلى الجنوب على حذاء شاطئ البحر حول شارع الاستقلال، ويتفرع

من طريق (أوريان پلت) متجها إلى الشاطئ الحر الذى سبق ذكره، ويمتد الضلع الآخر من الشرق إلى الغرب، شارع عمر المختار ويمتد إلى ميدان البلدية. ويقع خلف هذا الميدان سوق المدينة القديم وهو أشبه شىء بأسواق القاهرة القديمة المظللة الضيقة، ويسمى أهم أجزائه (سوق الظلام).

وأما كتلة الأبنية التى تقع فى داخل هذا المربع فهى مجموعة من الشوارع الضيقة التى تمتد من هذين الطريقين، ومازال تنتظر كثيراً من الإصلاح، فى نظامها والعناية بها.

وقد أصيبت بنغازى فى أثناء الحرب الأخيرة بأفدح الإصابات وما تزال الأبنية التى هدمتها القنابل قائمة فى كل مكان.

ومنذ انتقلت الحكومة الإتحادية إلى بنغازى أواخر سنة ١٩٥٧ بدأت حركة ظاهرة فيها للتعمير، ولكن أكثر امتداد العمران نحو خارج حدود المدينة القديمة، نظراً إلى وجود المناقع الملحة التى أشرنا إليها من قبل.

ولا يمكن أن نذكر بنغازى بغير أن نذكر الجامعة الليبية التى ولدت فيها. ففى سنة ١٩٥٥ نبتت فكرة إنشاء جامعة ليبية، ووهب ملك ليبيا قصره (المنار) ليكون مقراً لها، وهو قصر قائم فى مواجهة الميناء من ناحية البحر ويشرف على الشارع الأعظم

وهو شارع الإستقلال فى المدينة من الناحية الأخرى، ورحبت الجهات الحكومية بلفتة الملك في إهداء قصره، وكان رئيس الوزراء عند ذلك الشاب الطموح مصطفى بن حليم. وليس فى فكرة إنشاء جامعة فى ليبيا ما يدعو إلى العجب وإن كان الكثيرون رأوها خطوة فيها جرأة شديدة لبلاد مثل ليبيا لا يتعدى عدد سكانها مليوناً وربع مليون، وتعتمد فى ماليتها على مساعدات شتى تأتى إليها من انجلتره وأمريكا، وقد كانت ليبيا تبعث بأكثر أبنائها إلى الجامعات المصرية، وبقليل منهم إلى بعض بلاد أوروبا كايطاليا وأسبانيا، ولا تتحمل فى ذلك إلا عبئا ميسورا لا يقاس إلى الأعباء الثقيلة التى يستلزمها إنشاء جامعة.

غير أن ذلك الأمر مع ذلك كان ينطوى على شيء من الغموض، لن يلبث أن ينجلى بعد سنتين اثنتين من إنشاء الجامعة على ما يأتى ذكره فيما بعد. وكان مبعث الغموض فى أول إنشاء الجامعة الليبية، أن الأمريكيين تطوعوا بالمساعدة على تحقيق المشروع بحماسة عظيمة وسخاء لا يقل عنها عظمة. فإنهم بادروا بايفاد بعثه من أمريكا لإعداد تقرير واف ومشروع مفصل للجامعة المرجوة، وعرضوا على الحكومة الليبية نصف مليون من الجنيهات، يدفع على ثلاث سنوات لإعداد ما تحتاج

إليه الجامعة من أبنية وأجهزة ومكتبات، فكان ذلك مظهرا يبدو عليه أنه مثال رائع من الرغبة فى الخير والتعاون النبيل على تيسير العلم لشعب قاسى ما قاسى من الويلات فى السنوات الأربعين الماضية. وكانت اللجنة الجامعية الموقره من أمريكا مجموعة صغيرة من المدرسين فى جامعة نيڤادا وهى جامعة لها تاريخ خاص وتحمل اسم «جامعة هبات الأراضى الحكومية». ويرجع تاريخ تلك الجامعة وأمثالها إلى العهد الذى كانت الحكومة الأمريكية تهب للنازحين إلى الأطراف البعيدة مساحات من الأرض ليعمروها، وكانت تساعدهم بوسائل شتى على أن يواجهوا تعمير تلك الأقاليم البعيدة، فأنشأوا لهم جامعات عملية تعدهم للتعمير والاحتيال على الظروف الطبيعية، فإذا هو ينطوى على خطة صريحة يقصد بها أن تكون تلك الجامعة مدرسة أمريكية فى أهدافها وفى وسائلها وادارتها، ولا تزيد مدة الدراسة فيها على سنتين يتلقى فيها الطلاب مجموعة يختارونها من مواد يبلغ عددها نحو الثلاثين مقسمة إلى نحو تسع مجموعات. وبيَّن التقرير مصير المتخرجين فيها بأنهم يعملون فى الوظائف المختلفة ما بين الإشراف الصحى. والمساعدة فى أعمال الهندسة أو الحسابات أو الزراعة كما يعملون فى وظائف التدريس بالمدارس الثانوية!

وقيل بعد هذا إن النابهين من بين هؤلاء الخريجين يصلحون لأن يوفدوا إلى أمريكا لمواصلة دراستهم ونيل الدرجات الجامعية!

وعجب الكثيرون من تلك الخطة الفذة ومن صورة تلك الجامعة المنتظرة التى لا شبيه لها فى بلاد العالم كله، وإن زعم أصحاب التقرير أن خطتهم مستوحاه من نظام جامعى أمريكى!

ومما يحسن ذكره هنا أن جمهور الناس لم يظهر اهتماما كبيرا بفكرة الجامعة لأنهم تعودوا أن يذهب أبناؤهم إلى جامعات مصر أو غيرها وهم لا يريدون بذلك بدلاً، وكانت المفاوضة بين الأمريكان وأولى الأمر من الليبيين تجرى فى تكتم شديد فساعد ذلك الكتمان على أن الرأى العام الليبى لم يكد يتعرف على أن هناك تفكيراً فى إنشاء جامعة لأبناء ليبيا..

وقد كان ذهابى إلى ليبيا فى الوقت الذى انتهت فيه اللجنة من إعداد مشروعها وكانت عودتها إلى امريكا قبل سفرى إلى ليبيا بأسابيع.

وقد صار عجبى عظيما عندما اطلعت على تقرير اللجنة ومقترحاتها ومشروعها، بل أنى شعرت بشىء كثير من الرثاء للأساتذة الجامعيين فى بلاد مثل امريكا إذ يضعون أسماءهم على تقرير مثله. وأغلب ظنى أنهم تجرأوا على هذا لظنهم بأن

ذلك التقرير لا يزيد على إجراء رسمي وأن الأمر كله يتوقف على شيء واحد وهو نصف المليون الذى وعدت به امريكا. وزاد عجبى ورثائى أضعافاً عندما آتيح لى أن أرى بعض المكاتبات التى جرت فى تلك المناسبة بين بعض الأمريكيين وبعض. ولاشك أنهم كانوا يظهرون من الاحتراس أكثر مما أظهروا لو خطر ببالهم أن تلك المكاتبات ستحفظ صورها وأنها ستكون عرضة للإطلاع في يوم من الأيام. فقد قرأت فى إحدى هذه الرسائل ما تأتى ترجمته بالحرف الواحد:

«يقول البعض «دعوهم جهلاء» (أى الليبيين) غير أنهم سوف يتعلمون سواء أردنا أو لم نرد وهذه على كل حال طريقة سلبية، وأولى بنا أن نتبع طريقة أخرى ايجابية وهى أن نأخذ أزمّة التعليم فى ايدينا».

عند ذلك برح الخفاء وظهرت حقيقة المساعدة الكريمة التى عرضتها امريكا على الحكومة الليبية فى شأن إنشاء جامعتها، وكان رثائى لأصحاب تلك الرسائل عظيما لأنهم برهنوا على أنهم أغرار فى حبك الخطط التى ترمى إلى أخذ الأزمّة فى أيديهم.

غير أن أولى الأمر الليبيين لا يمكن أن يوصفوا بالبلاهة أو الغباء. حقا أنهم ليسوا من القديسيين وقد تكون من بعض

نواياهم أغراضاً أخرى لا صلة لها بالعلم ولا بالثقافة، ولكنهم أبعد الناس من أن يخدعوا أنفسهم مثل تلك الخديعة الكبرى. فإذا كان ولابد من إنشاء جامعة لتحقيق أغراض شتى، فإنهم لا يرضون إلا بأن تكون لهم جامعة مثل الجامعات التى يبعثون بأبنائهم إليها، لتقدم لهم من الخريجين من يستطيع أن يقوم مقام المدرسين والمهندسين والأطباء ورجال القضاء الذين يستقدمونهم من خارج البلاد.

ولهذا لم يكن من المستغرب أن يرفضوا ما سماه الأمريكان جامعة كما لم يكن من الصعب عليهم أن يعدوا لأنفسهم خطة تمكنهم من وضع أساس حقيقى للجامعة. وانفجرت الخطة الأمريكية كما ينفجر بالون الأطفال ذو الألوان الزاهية.

ولا ينبغى لى فى هذا المقام أن أغفل ذكر حقيقة هامة فقد كان الفضل فى انفجار ذلك البالون يرجع إلى مصطفى بن حليم رئيس الوزراء عند ذلك، فإنه كان يمثل ضمير ليبيا أصدق تمثيل، وأبى أن يخدعه نصف المليون عن إفساد ضمير بلاده.

ومما لا يحتاج إلى ايضاح أو تفسير أن ذلك النصف المليون قد تبخر في الهواء منذ انفجر بالونه.

ولا غنى لى عن الاسترسال فى الحديث لإتمام جانب من الصورة وجلاء ما يحيط بها من غموض فقد ظهرت نية

الأمريكان واضحة كل الوضوح بعد أن أُنشئت الجامعة الليبية الصحيحة وبدأت الدراسة فى أولى كلياتها وهى كلية الآداب، فقد حاولوا جهد استطاعهم أن يمسخوا صورتها عن طريق عميدين كان أولهما صديق المصريين (الدكتور كليلاند) الذى بذل جهده فى مدة عام كامل لتحويل الجامعة عن خط السير الذى رُسم لها، ولم يفتح الله عليه بدرس واحد يلقيه على الطلاب، غير أنه فى أواخر العام ألقى محاضرة عامة - لا عن ليبيا وأهداف التعليم فيها ولا عن المجتمع الليبى أو المجتمع الأمريكى، بل عن مشكلة السكان فى مصر، وخلص من محاضرته إلى أن تعداد سكان مصر سيصل فى مدى ثلثمائة عام إلى ألفين وخمسمائة مليون من الأنفس - أى مثل تعداد العالم كله الآن، وأشفق على مصر أن تجد البراح لإقامة سكانها. وقد كنت حاضراً فى هذه المحاضرة ولم أجد ضرورة للتعقيب عليه، فقد سرتنى نبوءته سرورا عظيما. وأتى بعد (كليلاند) عميد آخر لم يدخر وسعا فى السير على آثار سلفه، ولكن الجامعة الليبية تسير قدما فى طريقها وقد أنشئت بعد كلية الآداب كليتان أخريان إحدهما للتجارة والإقتصاد فى بنغازى والأخرى للعلوم فى طرابلس، وستمضى فى سبيلها مادامت تريد أن تكون جامعة. غير أن الخطط الأمريكية التى أعقبت هذه المحاولات ماتزال تعمل على

ضبط زمام التعليم فى ليبيا، غير أنها محاولات تدعو إلى العجب والرثاء دائما.

فلما أعجزهم إنشاء الجامعة التى يريدونها قنعوا بأن يبذلوا الأموال الطائلة لتحويل البعثات عن مصر وقد أمكنهم فى عام ١٩٥٧ أن يحملوا الحكومة الليبية على إرسال أبنائها إلى جامعات انجلتره، كما أنهم أرسلوا من أتموا تعليمهم فى مصر ليتطهروا فى أمريكا. ولعلهم يحسبون أن هذه الوسائل تحقق لهم ضبط أزمة التعليم فى أيديهم، ولكنها تكون غلطة مضحكة لو حسبوا ذلك. فالعلم هو العلم فى كل البلاد، والنور الذى يصل إلى القلوب يجلوها ويجعلها أكثر إيماناً بنفسها وبوطنها وقوميتها العربية الإسلامية.

غير أن أخشى ما أخشاه أن أولى الأمر الليبيين يخطئون وتحملهم أموال أمريكا على الإكتفاء ببعثاتهم إلى انجلتره وأمريكا فيحولهم هذا الاتجاه عن المضى فى إنشاء كليات الجامعة التى تتم كيانها. ولاشك عندى فى أن إرسال البعثات إلى غير البلاد العربية فيه إضاعة كبرى للوقت والجهد وأكبر دليل على هذا أن الذين أرسلوا فى سنة ١٩٥٧ إلى انجلتره مضطرون إلى البقاء ثلاث سنوات قبل أن يدخلوا إلى الجامعة، ثم لن يدخلوا إلى الكليات التى أوفدتهم ليبيا للدراسة فيها لأنهم

سيوزعون بحسب رغبة الجامعات الانجليزية لا بحسب رغبة ليبيا.

وأنه مما يؤسف له أن تعدل ليبيا - مهما كانت المغريات المالية - عن ارسال بعثاتها إلى مصر، فقد رحبت مصر بابناء القطر الشقيق وأدخلتهم الكليات التى تحتاج ليبيا إلى خريجيها وبذلت كل ما فى وسعها لتيسير الدراسة على هؤلاء الأبناء. وأنه لمما يثلج الصدور أن البعثات التى أوفدت إلى مصر لاقت كل التوفيق فى دراستها وبرهن أبناء ليبيا على أنهم جديرون بالانتساب إلى الأمة العربية المجيدة ذات الذكاء والسابقة فى المدنية والعلوم.

ومهما يكن من الأمر فقد أزالت أمريكا بهذه المساعى المكررة كل ما كان يحيط بإنشاء الجامعة من غموض وما كان يداخل الأفكار من شكوك فى نواياهم ومساعيهم الأولى. إنهم يريدون أن يضبطوا أزمّة التعليم فى ليبيا فى أيديهم، ونسوا أو تناسوا أنه من غير الطبيعى أن تكبت الطبائع الإنسانية، كما أنه من غير الطبيعى لأمة عربية مسلمة أن تتحول إلى أمة أمريكية أو غير أمريكية متى ضبطت أزمّة التعليم فيها. إن هذه سذاجة فى شئون السياسة لا أكثر ولا أقل، وموقع بنغازى يجعلها مركزاً هاما - لا فى برقة وحدها بل فى ليبيا كلها - فهى ملتقى

الطريق الآتى من الشرق من نحو الجبل الأخضر وهى مركز السهل الساحلى الذى يتسع عندها ويمتد إلى الجنوب نحو مجموعة من المدن الصغيرة مثل سلوق واجدبية، وهى تواجه خليج سرت بشواطئة الممتدة إلى طرابلس. والأرض المحيط بها ذات تربة غنية تصلح للزراعة لو توافر الماء لها . ولكن الريف المحيط بها يشبه إقليم الجبل الخضر فى قلة اهتمام أهله بالزراعة.

ولذلك فهى تستورد كثيراً من خضرها وفاكهتها من طرابلس.

وقد تعرضت ميناء بنغازى لأضرار جسيمة فى مدة الحرب الماضية إذ كانت تتوسط ميدان الكر والفر بين الجانبين المتحاربين، ولهذا بقيت إلى الآن تحمل آثار التخريب من بقايا السفن الغارقة. فالسفن الآتية إليها جميعا هى الصغيرة التى تستطيع أن تتجنب الإرتطام بما فى أعماق البحر والميناء من الحطام.

ومما يزيد تلك الميناء ضعفاً أن هندستها تجعل تيار الماء عند مدخلها شديداً فيصعب اجتياز السفن له فى كثير من الأحيان، والحكومة الليبية مهتمة بدراسة العوامل التى أدت إلى هذا الإختلال والعمل على إصلاحه. غير أن ميناء بنغازى لا تبلغ فى الأهمية مبلغ ميناء طرابلس من ناحية موقعها الجغرافى وما

ينشأ عنه من الأهمية الاقتصادية. أو أن بنغازى منعزلة عن شواطئ البلاد المجاورة فتجارتها معها محدودة بطبعها على خلاف ميناء طرابلس التى تمتد نحوها شواطئ ايطاليا وتقترب منها شواطئ تونس، وتواجهها بلاد البحر الأبيض المتوسط القريبة.

لهذا كانت بنغازى أقرب إلى أن تكون مركزاً داخليا لبرقة وصلتها بشرق البحر الأبيض المتوسط محدودة.

وما يسترعى النظر فى المدينة كثرة ما فيها من البضائع المستوردة. فمحال البقالة حتى الصغير منها مزدحم بأنواع المعلبات ولا يكاد الإنسان يرى فيها شيئا من حاصلات البلاد، حتى اللبن فإنه لا يكاد يوجد الا فى الصفائح الصغيرة المستوردة.

وفيها من أنواع الآلات والأدوات والملابس ما يحرض الكثيرين ولاسيما المصريين على الشراء – من سيارات وثلاجات وغسالات وأدوات منزلية كهربائية – وفيها من الكماليات ما لا يتناسب مع الحالة الاقتصادية العامة للبلاد.

وأهل بنغازى لهم طابع وحدهم لا يشبه طابع أهل الأقاليم المحيطة بها، وأكثرهم، على ما يقال، من النازحين من البلاد الغربية مثل مصراته (فى طرابلس الغرب)، وطرابلس وتونس،

وهذه هى الحال فى المدن الكبرى الأخرى فى برقة مثل مدينة درنة. ومن أجل هذا كان هناك شىء من الاختلاف بين أهلها وبين أبناء القبائل التى تحيط بها سواء فى الطباع أو فى أسلوب الحياة.

وأكثر طعام أهل بنغازى - كما هو الحال فى كل برقة وليبيا عامة - هو اللحم. ومما يسترعى النظر فيها كثرة متاجر اللحم فى كل مكان. والطعام السائغ فيها .. اللحم مع الكسكسى واللحم مع البازين، وهو نوع من العصيدة، يلت باليد فى إدام اللحم حتى يُطرى وينقع فيه ثم يؤكل. وملابس أهل المدينة تختلف عن ملابس أبناء القبائل، فالبدو وسكان الجبل والقرى يلبسون عادة (الجرد) وهو حرام يشبه ما تلبسه قبائل العرب فى إقليم البحيرة بمصر وأما أهل بنغازى فيلبسون سروالاً من فوقه قميص قصير وصدرية، ولا يلبسون الحرام إلا قليلا. وقد تكون ألوان السراويل والأقمصة فاقعة أو زاهية ولا سيما عند الشبان والصغار. وكثير منهم يلبس البنطلون والقميص على النظام الأوروبى. وقد يتخذ بعضهم للرأس غطاءً، وهو طربوش مغربى بغير زر.

ومنظر هذه الملابس الشعبية فى بنغازى - كما هى فى طرابلس، منظر حسن وليس فيه ثقل (لخمة) الملابس البلديه

المعروفة فى مصر، وحبذا لو اتخذ العرب فى كل مكان لباساً شعبياً موحداً من هذا الطراز. فهو جميل المنظر رشيق وفيه طابع خاص به يخلع على الناس شخصية متميزة. والألوان الفاقعة أو الزاهية التى يلبسها الشبان من العمال أو الصبيان تكسب المنظر العام بهجة ولا سيما فى أيام الأعياد، ومن الطبيعى أن يتساءل من يزور برقة عن أصل أهلها، والحديث فى هذا طويل متشعب. وقد كان الطبيعى أن نتحدث عن أهل ليبيا عامة، ولكن الطابع الذى يميز أهل برقة وطرابلس، يجعلنا نؤثر أن نقسّم الحديث عنهم فى كل من الأقاليم الثلاثة التى تتكون منها ليبيا.

ومما أحب أن أذكره فى هذه المناسبة حادثة صغيرة كان لها فى نفسى أثر عظيم فى أول عهدى بمدينة بنغازى، فقد كنت سائراً فى احدى حارات المدينة القديمة ذات صباح فرأيت أمامى طفلة تبلغ التاسعة من عمرها تتجه نحو المدرسة. ونادتها باسمها زميلة لها من خلفى فقالت «يا فاطمة»، وكان فى رنين صوتها شىء استرعى انتباهى، إذ خيل إلى أنى أسير فى حارة من حارات إحدى قرى مصر.

والتفتت فاطمة نحو زميلتها فرأيت وجهها وكأنى أرى وجها رأيته من قبل وعرفته. كانت ملامحها وسحنة وجهها ونظرتها

وبسمتها لزميلتها وهيئة ملبسها وتسريحة شعرها، كان كل ذلك.. يشبه ما سبق لي أن عرفته في أطفال القرى المصرية ولا سيما قرى الوجه البحرى.

وسرت في طريقي سابحا في فكرة واحدة استولت على. فكيف حدثت هذه الظاهرة العجيبة؟ أيه قوة هذه التي استطاعت أن تطبع أهل هذه البلاد بمثل هذا الطابع؟ وأي شعب كان هذا الشعب الذي استطاع أن يخلد أثره في بلاد تفصل بينها آلاف الأميال؟ لم يكن صوت الطفلة الذي سمعته إلا ذلك الصوت الذي يمكن أن أسمعه في مصر وفي غير مصر من البلاد التي تمتد من العراق إلى المحيط الأطلسي. ولم تكن طريقة الحديث وطريقة التحية وطريقة المشي والملبس والزي إلا طريقة واحدة تتميز عن كل طريقة سواها. حقا لقد كان العرب شعباً عبقريا له طبيعة غلابة.

غير أن أهل برقة يرجعون بأحوالهم إلى آماد بعيدة. فالذي يتتبع تاريخ هذه البلاد لا يملك إلا أن يستعرض تيارات الشعوب التي حلت في شمال افريقيا جميعا. فالسكان الأصليون عرفهم قدماء المصريين بأسماء شتى، منها اسم اللوبيين وكانوا أجناساً مختلفة يظهر أنها حلت في البلاد في أوقات متباعدة فهم ذو البشرة السمراء والعيون السوداء، من أهل البحر الأبيض

المتوسط ومنهم ذو البشرة الحمراء والعيون الزرقاء. وقد طُعّم هؤلاء الليبيون القدامى بأجناس عدة على مدى العصور، فالأغريق القدماء خلطوا دماءهم بهم، وكذلك سكان الجزائر فى البحر الأبيض المتوسط، ثم أتى الروم ولم تخل منهم دماء سكان البلاد بطبيعة الحال. غير أن الدم الليبى بقى مع هذا الامتزاج غالباً حتى جاء العرب. وكان أهل البلاد عند ذلك يطلق عليهم اسم البربر، لعل هذه كانت تسمية رومانية إذ اعتاد الروم أن يسموا الأجناس غير الاسيويه بالبربر. ومن أعجب ما حدث فى التاريخ أن هؤلاء البربر سارعوا إلى الدخول فى الإسلام والامتزاج بالعرب الفاتحين، وكانت سياسة العرب فى شمال افريقيا تختلف عن سياستهم فى سائر البلاد التى غزوها، فإنهم اعترفوا بالمساواة التامة بينهم وبين أبناء البلاد وأباحوا ما لم يبيحوه لغيرهم من الشعوب وهذا الإنخراط فى الجنس العربى، فكان طارق بن زياد فاتح الأندلس بربرياً، كما كان أكثر الجيش الذى تحت إمرته بربريا.

غير أن الطابع العربى الذى يميز أهل برقة كان طابعا مصرياً محضا، فقد بعثت مصر بعض قبائلها فى القرن الحادى عشر للميلاد إلى ليبيا فى مدة الخليفة المستنصر الفاطمى، وهذه هى قبائل سليم وهلال.

وحلت قبائل سليم في برقة. وانساحت قبائل هلال نحو الغرب حتى بلغت طرابلس وتونس وكانت بطون القبائل تحل فى الأرض حيث تستقر، حتى غب طابعهم على أهل البلاد جميعا . ولاشك فى أن بعض أهل البلاد الأصليين نزحوا إلى الغرب أو إلى الواحات الداخلية كما أن بعضهم آثر المقاومة ، فمات فى الحرب عدد منهم، إلى أن استقر الأمر بتغلّب قبائل سليم، وسيادتها على الإقليم كله. وعند ذلك امتزجت دماء العرب بدماء البربر امتزاجاً تاماً، وتغلبت بطبيعة الحال لغة المنتصرين وطريقتهم فى الحياة حتى أنه يبدو اليوم كأن قبائل برقة قبائل عربية محضة.

وقد ساعدت طبيعة البلاد على بقاء إسلوب الحياة العربية البدوية بخصائصها جميعا، من إيثار الإقامة فى بيوت الشَعر والاهتمام بالرعاية والتقسيم إلى بطون وعشائر. والسير على سنة البدو فى المعاملة سواء فى السلم أو الحرب. وسادت لغة الفاتحين وبقيت بكل مميزاتها حتى أصبحت لغة البدو فى برقة، وهى لهجة سليم، ومازال القوم إلى اليوم يعيشون بدواً ويتكلمون وينشدون أشعارهم بدواً ويتبعون كل نظم الحياة البدوية كما لو كانوا قد خرجوا من مواطنهم فى نجد منذ مائة عام.

والقبائل البرقاوية مازالت تبعث أمواجاً منها نحو الشرق بين حين وآخر، فقد كانت منذ استوطنت هذه الأرض تجرى على سنة العرب الأبدية، فقبائل تتفرغ إلى بطون وأفخاذ وعشائر

وبيوت، وقد ينشأ بين فروع القبيلة الواحدة ما يؤدى إلى التنافس والتباعد، أو إلى الحرب أحيانا. وقد يختلف أبناء العم على مناطق المرعى أو الزراعة، كما قد يختلفون على إثر اعتداء بعض أفراد عشيرة على أفراد عشيرة أخرى، فإذا لم يستطعوا تسوية الخلاف، ثارت بينهم حروب قد تتطاول مدتها. وقد حدث فى بعض الأحيان أن ينصب بعض الحكام الأقوياء. على شيخ قبيلة بينه وبين أبناء عمه من القبائل الأخرى شىء من المنافسة أو الخلاف، فيؤلب الحاكم على القبيلة منافسيها وخصومها ويساعدهم بالمال والعدة حتى يقضوا عليها أو يجلوها عن أرض برقة، فلا تجد القبيلة المنهزمة ملجأ إلا أن تنزح إلى الشرق فتنزل بصحراء مصر أو بأكناف الوادى.

وقد حدث مثل هذا مع قبائل (الجوازى) فى أيام ملوك القرمانلية فنزحت إلى مصر ونزلت فى المنيا والفيوم ولعل بعضهم نزل فى غيرها. وقد اضطرت قبائل أولاد على إلى النزوح عن برقة كذلك عندما هاجمتها قبائل العبيدات وحلفاؤها، وكان أولاد على قبل ذلك قد أجلوا قبائل الضاوى عن برقة فنزحت إلى مصر وحلت بمديرية الشرقية. هذا عدا عشائر وأسر أخرى كانت تنزح إلى مصر بين حين وآخر لأسباب عدة، وما يزال أبناء ليبيا بصفة عامة وأبناء برقة بصفة خاصة، يتخذون موطنين أحدهما فى ليبيا والآخر فى مصر، وقلما تجد قبيلة

برقاوية لا تتصل بقرابة بالقبائل العربية المصرية.

وعندما تأزمت الأمور واشتدت وطأة الايطاليين على ليبيا، كانت هجرة الكثيرين من أهل برقة إلى مصر لا تزيد على هجرة بعض أفراد أسرة إلى أقربائهم عبر الحدود.

غير أن أسلوب الحياة عند قبائل برقة يختلف كل الاختلاف عن أسلوب حياة أبناء عمهم فى مصر وذلك راجع إلى أثر طبيعة الأقليم فى كل منها. ولكن بقيت خصائص كثيرة مشتركة بينهم مثل تشابه اللهجة وتشابه الملبس والمأكل فى كثير من الأحوال

وللبدو فى برقة محاسن كثيرة إلى جانب ما فيهم من الصفات الأخرى التى لا تتلاءم مع الحياة الحديثة. فمن محاسنهم الصراحة وحب الحرية، فهم لا يطأطئون رؤوسهم للعسف ويبالغون فى ذلك مبالغة كانت تؤدى فى كثير من الأحيان إلى الثورة على الحكم. والذى يتتبع تاريخ برقة يستطيع أن يلمح قبائل لم تخضع خضوعا حقيقيا لسلطان دولة من الدول، ولا حكومة من الحكومات. وكانت الحكومة التركية لا تستطيع أن تجبى الضرائب القليلة التى كانت تفرضها عليهم إلا بمشقة كبرى، وكانت تتحاشى إثارتهم باتباع الشدة فى تحصيلها. والبدو فى برقة معروفون بالكرم كما عرف به العرب دائما، وفيهم مروءة تروى فى شأنها قصص شتى. قيل إن أحد الشيوخ كان بينه وبين أحد منافسيه عداوة وثأر لا ينام عنه،

وجاءه ضيف في ليلة من الليالي فأكرمه واحتفل بنزوله عنده حتى عرف من ثنايا حديثه أنه هو العدو الذى يتربص به. غير أن مروءته أبت عليه إلا أن ينتظر حتى الصباح وطلب إليه أن يفارق منزله على تلك الفرس منذرا إياه أنه سيتبعه على الأثر. فإذا أدركه نال فيه ثأره. وقد استطاع الضيف العدو أن ينجو على فرسه الفارهة. وقد يكون فى هذه القصة شيء من المبالغة أو التصوير ولكن الذى يعرف بدو برقة يستطيع أن يتصور حدوث مثل هذا التصرف. وقد ظهرت صفات أهل برقة فى مقاومة الإستعمار الايطالى بارعة لم يكادوا يضعون السلاح منذ حل الايطاليون فى سواحلهم فى سنة ١٩١١ إلى أن شاركوا فى إجلائهم عن بلادهم فى سنة ١٩٤٣ . وكانت عدتهم وأعدادهم لا تقاس شيئا إلى عدة الايطاليين وعددهم. وكانوا يُهزمون فى مواقع كثيرة ولكن هزائمهم لم تخلع قلوبهم وتحملهم على التسليم. وقد لجأ الايطاليون فى آخر الأمر إلى الوسيلة التى ظنوها وسيلة وحيدة لإخضاعهم فجمعوا القبائل بأطفالها وشبابها وشيوخها ونسائها وحشروهم فى معتقلات كثيرة فى العراء حتى لم يكد يبقى من أهل برقة أحد فى غير تلك المعتقلات. ولنا أن نتحدث كما نشاء رجما بالغيب عما كان يحدث فى هذه الحظائر — فإن ما يخطر على بالنا من الظن أقل شناعة من الحقيقة التى قاساها الناس فيها. وإنا نشفق

على القارئ أن نقص عليه شيئا مما سمعناه ممن شهد هذه الكوارث فإنها صور تتضائل إلى جانبها كل ما كان يُشنع به على فظاعات (هتلر) مع اليهود، على حين كان الفرق عظيما بين قوم لم يقترفوا شيئا أكثر من تعلقهم بحريتهم وتمسكهم باستقلالهم وبين قوم آخرين كانوا يتآمرون وهم مواطنون المانيون من أجل تحطيم وطنهم المانيا.

ولسنا بهذا نلتمس العذر لما أتاه هتلر من أعمال الوحشية ولكنا نبين مقدار ما تحمّل أهل برقة مما يزيد فى شناعته على كل ما اقترفه الطغاة. غير أن هذا كله لم يكن كافيا لخلع قلوب أهل برقة. وقد خلّد شعراء القوم وصف مواقفهم وانتصاراتهم وهزائمهم كما صوروا ما حل بهم من النكبات فى قصائد شعبية بلهجتهم البدوية وهى ذخيرة أدبية تاريخية نمطية أرجو أن يعنى المثقفون من أبناء البلاد بجمعها ونشرها وإيضاح صورها.

ومع ما كانت عليه قبائل برقة من رفضها للخضوع وتمسكها بالاستقلال والحرية، كانت تتطوع من تلقاء نفسها بالانتظام فى سلك ما تأنس إليه من النظم وتخضع له راضية وتجود بالمال الكثير فى سبيله عن طواعية. فقد فُتحت قلوبهم للسيد محمد بن على السنوسى منذ أكثر من مائة عام وأقبلوا على طريقته مع أنه أتى إليهم وحيداً فقيراً لا يملك غير إخلاصه للدين وحماسته للإصلاح ورغبته فى خير المسلمين. فلمست شخصيته قلوبهم

فانطلقوا معه يؤسسون الزوايا حتى انتشرت فى مدة حياته فى مواطن القبائل جميعا، واستمرت حماستهم فى مدة خلفه وولده السيد محمد المهدى، كانوا ينزلون للزوايا فى سخاء عن أرضين وعيون ماء ومراع ونخيل وبساتين، حتى بلغت أوقافها مبلغا عظيما، فوق ما كانوا يهبون لها من الأموال وما كانوا يقدمون لها من العمل. كانوا يقيمون بناءها بأنفسهم ويعدون اثاثها، ويهتمون بكل شئونها ثم كانوا مع ذلك يحترمون شيخ زاويتهم وينزلون على حكمه فى منازعاتهم، ويأتمرون بأمره معتقدين أنه الآمر بالمعروف دائما. فقبائل البدو تستطيع أن تخضع للنظام وأن تحترم الحدود وتسخو بالأموال من أجل المصلحة العامة، غير أنهم لا يفعلون شيئا من ذلك إلا إذا آمنوا بذلك النظام واعتقدوا فى عدالة تلك الحدود واعترفوا بالمصلحة العامة التى من أجلها يجودون بالأموال. ولهذا يرى الكثيرون أن مثل هذا الشعب يصلح لو حسن توجيهه وزاد مستواه الثقافى أن يكون شعبا ديمقراطيا حديثا وأن يظهر شخصية فى انشاء حضارة حرة إذا هو آمن بطراز الحكم الذى يلائم نفسيته وطبيعته.

والبدو بطبيعته نظامهم القبلى مجبولون على الولاء للجماعة التى ينتسبون إليها، وهذا ما يجعل الحكم على اتجاهاتهم عسيراً على من لا يتعمق أسرار حياتهم.

فالبدوى ولىّ لأهل بيته وقد يدفعه هذا الولاء للوقوف فى وجه

البيوت الأخرى إذا صادمت مصلحة بيته أو مشاعرها، ولكنه مع سائر بيوت العشيرة يقفون فى وجه عشيرة أخرى ويرون هذا واجباً يحتمه عليهم الولاء للعشيرة للدفاع عنها أو نصرها ضد العشائر الأخرى. ثم هو ولىّ لقبيلته إذا ما كانت فى موقف نزاع أو عداء مع قبيلة أخرى. وهكذا تتعدد جهات الولاء للبدوى وهو فى كل موقف ولىّ مخلص يبذل فى سبيل ولائه كل نفيس عنده بل ويبذل حياته وأمنه إذا دعت الحال إلى ذلك. وهذه السجية البدوية وإن كانت فى ذاتها تنبع من معنى المروءة والأريحية لا تتلاءم مع الحياة الحاضرة التى أساسها تصافى أعضاء المجتمع الواحد واتجاه الولاء كله للمصلحة القومية العامة. وقد ظهرت آثارها السيئة فى تنافس القبائل فى طرابلس فى أثناء الحرب الايطالية أو كان التنافس بين القبائل المختلفة والزعماء المتفرقين فى أنحاء الاقليم مؤديا إلى تخاذلهم، وكان الايطاليون يضربون بعضهم ببعض.

أما برقة فقد كان من حسن حظها وجود عامل قى على تجميع الكلمة وتوجيه الولاء العام وجهه واحدة تحد مجاهده العدو، وهذا العامل القوى هو النفوذ السنوسى. فإن توجيه زعمائها واخلاص شيوخ الزوايا لها وتغلغل الزوايا فى القبائل واتصال الناس بها اتصالاً روحياً شديداً أدى إلى أن تقليل ما بين القبائل من مصادمات كما أدى إلى جمع كلمتهم لمواجهه

العدو المشترك عندما جاء لغزو بلادهم.

فالقبائل على ما يظهر مستعدة للتطور نحو مفاهيم الحياة الجديدة، إذا هي وجدت العوامل التي تؤلف بينها وتشعرها شعوراً عميقا بوجود أهداف قومية عليا تستحق أن تجتمع كل القلوب على التحمس لها والحرص على بلوغها. وهناك وجه من وجوه النقص يظهر واضحا في برقة بوجه خاص وهو التكبر عن العمل. وليس هذا بمستغرب في بلد احتفظ أهله بمواريثهم البدوية المتأصلة في البدو جميعا، ومن أكبر مظاهرها إحتقار العمل اليدوي. وقد كان البدوي في بلاد العرب منذ القدم لا يعبأ بالزراعة ولا بالصناعة وكان من العار عنده أن يمارس الإنسان صناعة من الصناعات. وكان لقب القين عندهم سبة، والقين كما هو معروف صاحب الصناعة اليدوية. وكان العرب في أول عهدهم بمصر لا يرتاحون للأشغال بالزراعة، فإذا ملكوا الأرض استخدموا فيها الفلاحين وكانت الفلاحة العملية عندهم مهنة غير شريفة. وكان البدو في مصر إلى عهد قريب يأنفون أن يزوجوا بناتهم لأبناء الريف أو كما كانوا يسمونهم فيما بينهم أبناء الفلاحين لأنهم كانوا إلى عهد قريب يحتفظون ببعض مواريثهم البدوية. فلا غرابة إذن إذا كان أهل برقة يأنفون من الزراعة ومن سائر الأعمال اليدوية، وكل ما يسمحون به لأنفسهم أن يجهزوا الأرض في موسم الأمطار ليزرعووا بها مؤنتهم من الشعير أو

القمح. ويندر أن يعبأ بدوى برقة بزراعة بستان، ولا يكاد يوجد فيهم من يمتهن مهنة يدوية. فمهنتهم المفضلة هى الرعاية، وبيتهم المفضل مازال بيت الشعر والفرس والجمل وقطعان الغنم، أحب أمواله إليه.

غير أنه لاشك فى أن تطوراً جديداً يبدو على الأفق ولن يكون من المستغرب تحول إسلوب الحياة فى برقة بعد قليل مع رقى مستوى التعليم وأثر تيار الحياة الحاضرة.

وإذ نتحدث عن التعليم وأثره فى التطور لا ننسى أن اهتمام برقة بالتعليم يدعو إلى الإعجاب، وهو لا يقتصر على تعليم الأولاد بل هناك اهتمام شديد بتعليم البنات. فبرقة فى ميدان تعليم البنت تقطع مرحلة بعيدة بالقياس إلى غيرها من ولايات ليبيا.

ومن الأمور التى تسترعى النظر أن برقة البدوية لا تفرض على النساء مثل ما تفرضه طرابلس على نسائها مع أن طرابلس أقرب إلى الحياة الأوروبية من برقة. فالحجاب فى بنغازى أهون من حجاب طرابلس. وفيها يذهب البنات المدارس عاريات الوجوه فى حين أن بنات طرابلس يذهبن إلى مدارسهن محجبات.

والنساء الحديثات فى بنغازى يلبسن نقاًبا خفيفاً ومعطفاً، فهن يشبهن المصريات قبل سنة ١٩١٩ وحركة تحرير النساء فى

بنغازى تتجه بقوة نحو مقتضيات الحياة الجديدة، وفى المدينة جمعية نسوية تتزعمها أحدى سيدات التعليم، وهى السيدة حميدة الفيندى التى يمكن أن نلقبها هدى شعراوى ليبيا. ومما يذكر فى هذا المقام أن الجيل الصاعد من الشباب فى ليبيا جميعاً يؤمن بتحرير المرأة ويرفع صوته مناديا به، وهو آخذ فى تنفيذ التحرر عملياً عندما يكوّن أسرته، وإن كان الكثير منهم لا يتجرأ على إظهار زوجته إلى جنبه فى الطرق لخشيته من قوة الرأى العام. ومن العجيب إنك لا تحدث من المثقفين فى ليبيا سواء كان شابا أو شيخا بغير أن تجده يوافقك على ضرورة تحرر المرأة ولكن الشيوخ يؤثرون التريث خوفا من الطفرة وما قد تحدثه من الأضرار الخُلقية. وهم لا يترددون فى الموافقة على تحرير المرأة بشرط واحد وهو أن ينتشر التعليم فى الأجيال الصاعدة إنتشارا كافيا وأن تتهذب النفوس حتى تؤتمن على الحياة المتحررة. والحجاب لا يمنع الفاجر من غوايته إذا لم يكن هناك حجاب نفسانى من فضيلة باطنية. ومهما يكن من الأمر فإن المحقق عندهم أن الزمن يسير بطبعه والحياة وجه منه تتطور حتماً سواء رضى الناس أم لم يرضوا.

ولا يقتصر إهتمام الليبيين عامة وأهل برقة خاصة على التعلّم فى المدارس. فالحضريون فى بنغازى لهم شغف عظيم بالإطلاع، والشباب الذين نالوا قسطا من التعليم ثم انخرطوا فى سلك الوظائف الصغيرة حريصون على القراءة، ويعجب الإنسان لمقدار اطلاعهم على ما ينشر من المؤلفات فى البلاد العربية، وهم يعرفون أسماء الكتاب والشعراء فى الجمهورية العربية ولبنان والعراق ويتابعون ما ينشر من النقد لهؤلاء الأدباء، وهم

ينقسمون إلى أراء شتى فى تقديرهم للإنتاج الأدبى ويعبرون عن أرائهم فى حماسة ظاهرة تدل على مقدار اقتناعهم بما يقولون وسعة اطلاعهم على ما يكتب سواء في الصحف والمجلات أو فى الكتب. وقد دهشت يوما إذ رأيت بائع السجائر المتنقل على عربته يقرأ إلى جانب عربته فى ناحية من الرصيف، وكان الكتاب الذى فى يده كتاب (صلاح الدين الأيوبى) الذى نشرته دار الهلال فى يونيه سنة ١٩٥٨.

وفى بنغازى أقسام ليلية لتعليم الأميين والبادئين فى القراءة، وهى تعد طلابها للإمتحان فى الشهادة الإبتدائية، ولعلها تستمر حتى تعد الطلاب لامتحانات ما بعد تلك الشهادة. ومما يحمل مغزى قوياً أن المدرسين فى هذه الأقسام الليبية من المتطوعين الليبيين الذين لا يطلبون على عملهم جزاءاً مادياً.

يمكن على وجه الإجمال تقسيم أهل ليبيا إلى قسمين متميزين. وهما أهل الحضر ولا سيما أهل بنغازى ودرنه، ثم البدو، فالحضريون يشاركون أمثالهم فى البلاد الأخرى مشاركة تقل أو تزيد فى حدود أثر البيئة والتقاليد والحوادث التى أثرت فى كل اقليم وطبعته بطابعها. ولكن البدو يختلفون اختلافا كبيراً عن أهل الحضر فى برقة وعن أهل الحضر والبدو فى البلاد الأخرى. فالبيئة التى يعيشون فيها تختلف بين إقليم أخضر ذى زرع وشجر وماء يجرى من عيون دائمة وبين إقاليم أخرى تتدرج من الإقليم الخصب إلى السهب إلى الصحراء القاحلة. ولهذا كان الفرق واضحاً بين البدو المقيمين إقامة دائمة فى الجهات الخضراء وأبناء عمومتهم المقيمين فى السهوب الجنوبية وما

يليها من الصحراء.

وكثير من المقيمين في الأقاليم الخضراء في فصل الشتاء إلى الجنوب للرعي ويسوقون معهم الإبل والأغنام لقلة حاجتها إلى الشرب. وفي فصل الشتاء تقلل الحشائش الخضراء من حاجة الحيوان إلى الشرب بالطبع، والأمطار التي تنهمر بين حين وحين هناك كفيلة بوجود ما يُستقى منه في أحواض الصخر. وهناك آبار تفيض منها المياه شتاء فتكفي الشرب إلى أن تجف في فصل الصيف. وعند ذلك يعود النازحون إلى أوطانهم الخضراء ليحصدوا الزرع الذي يتم نضجه في حوالي شهر ابريل.

غير أن هناك طائفة قليلة من البدو الصميمين يعيشون على حدود الصحراء ويضربون في الأرض الجنوبية متنقلين بها من مكان إلى مكان حيث الماء والعشب ما بين فزان وحدود مصر. والقبائل الضاربة في إقليم سرت وهو الجانب الغربي من برقة، يقربون إلى هذا الصنف من البدو، فهم قوم رعاة لا يهتمون بالزراعة إلا قليلاً من زراعة الشعير إذا جاء فصل الأمطار.

وبعض جهات برقة عظيمة الخصب مثل سهل المرج وينقلون أن غلة الحبة تبلغ مائة ضعف إذا كانت الأمطار كافية وكان نزولها في الأوقات المناسبة للزرع.

وأهم القبائل في برقة تسع، وهي قبائل السعادي من بني سليم وهي العبيدات حول طبرق إلى حدود مصر وتليها الحاسه وعيلات فايد، والبراعصة، والدارمسة، في وسط إقليم الجبل والعبيد والعرفة في غربه ثم العواقير والمقاربة في السهل الذي إلى شرق بنغازي وجنوبها وهناك مجموعة أخرى من القبائل

التي تجاور هذه التسع وهي قبائل المرابطين ويقال أنهم ينتمون إلى أصول مغربية نزحت إلى برقة منذ القدم وكان أجدادهم من المرابطين أي رجال الدين المحاربين وبعض هذه القبائل المنتسبة إلى المرابطين يقيم بين ظهراني قبائل السعادي وبعضهم يقيم في أوطان مستقلة بهم. وهي في العادة في اقليم السهوب ذات الخصوبة القليلة. ومن أجل هذا فبعض قبائل الرانطين تمتاز ببداوتها الأصيلة وفيهم صرامة وشهامة جعلتهم في مقدمة القبائل المحاربة في برقة.

ومن أهم ظواهر الحياة في برقة تقسيم ملكية الأرض الصالحة للزراعة بين القبائل فلكل منها رقعة معينة يعيش أبناؤها فيها ويقسمونها بين العيلات والبيوت. وأما أرض السهوب ذات المراعي وما دونها من الأرض فبراح مباح لكل من آراد أن يرعى فيها إبله وأغنامه أو يلقي فيها بذور الشعير إذا كانت الأمطار مناسبة. فأرض الزراعة محدودة في حدود القبائل ولا ينبغي لأحد من أبناء قبيلة أن يملك أرضاً في رقعة قبيلة أخرى فإذا أضفنا هذه الظاهرة إلى ما سبق أن أشرنا إليه من احتقار البدوي لمهنة الفلاحة واستكباره على العمل اليدوي أدركنا ما هنالك من العقبات في سبيل التعمير.

وقد كانت ايطاليا تعمد إلى نزع الأرض الصالحة للزراعة من أهلها قسراً وبتعويض قليل أو بغير تعويض إذا وجدت إلى ذلك سبيلا. ووقع كثير من الأراضي في يد الحكومة الايطالية عندما صادرت أملاك من كاد يخرج عليها من الشيوخ وأقامت من ذلك كله مشروعا عظيما للاستعمار بدأته عندما لاح لها أن البلاد

خضعت لها خضوعا كاملا. فقسمت الأرض إلى إقطاعات مختلفة المساحة وانشأت فى وسط كل إقطاع بيتا وزريبة للبهائم واعدت فى كل بيت ما يلزم من ضروريات المعيشة ثم حملت من ايطاليا طوائف بعد طوائف لتوطينهم فى تلك الإقطاعات.

فلما أراد الله إخراج ايطاليا من تلك الأرض آلت ملكيتها إلى الحكومة الليبية وهى اليوم بصدد إعداد خطة بتمليكها للأفراد، ولكنها بطبيعة الحال تلتزم حدود التقاليد المرعية فلا تقحم فى رقعة قبيلة من كان غريبا عنها بل تعمل على إرجاع الأرض إلى أصحابها الأوائل لقاء شروط معينة تكفل بها قيام المالك الجديد بالإنتاج والإصلاح.

ولكن الحكومة الليبيه على ما يبدو لنا لم تتخذ بعد الوسيلة الصحيحة التى تكفل لها تعمير الأرض الخصبة والاستفادة منها على الوجه الأكمل. ونرى أن الوسيلة الصحيحة هى أن تجعل الحكومة الليبية لهذا الغرض خطة محكمة تتوفر على دراستها كما فعلت ايطاليا من قبل. وأمامها صعوبتان واضحتان، الأولى وقد سبقت الإشارة إليها، قلة إقبال البدو على العمل وقلة درايتهم بأصول الزراعة وبعدهم عن سلوك الطرق الملائمة للحياة الحديثة. ولا يمكن إصلاح الأرض على الوجه التى تريده الحكومة إلا إذا أعدت ناشئة الشعب البدوى لمواجهة المشكلة. فلابد لها فيما نرى من إعداد نوع من المدارس الحديثة ذات الصبغة العملية يدخلها طائفة من أبناء القبائل ليعيشوا فيها مدة كافية مثل ثلاث سنوات يُوجّهون فى أثنائها علمياً وعملياً ليكونوا مواطنين عاملين فى أرضهم ويستطيعون أن يعمروها ويستغلوا

امكاناتها بالعمل على هدى ما اكتسبوه فى دراستهم من المعارف وما تمرسوا به من صنوف الخبرة. وأما الصعوبة الثانية فهى ذلك النظام المتبع فى تقسيم أرض الزراعة بين القبائل، فهو بمثابة تجميد لإمكانات الأرض ويشبه إلى حد كبير نظام الوقف الذى ظهر فساده وسوء أثره فى اضمحلال الإنتاج وتصادم المصالح.

فإذا كان ولابد من بقاء ذلك النظام لتأصله فى نفوس أهل الاقليم فلا مناص من تقرير خطة لاستغلال الأرض الداخله فى حدود كل قبيلة بطريقة جماعية. فيكون الإنتاج فى كل رقعة مشروعاً قائماً بنفسه تساعد الحكومة على تمويله وتعد له العاملين من أبناء القبيلة بتربية الأجيال الصاعدة وإعدادهم للإنتاج المناسب للإقليم وبتوجيه الجيل العامل فى الوقت الحاضر إلى وسائل التعاون والعمل بالتضامن فى مشروع عام. وفى رأيىّ أنه إذا لم تقم الحكومة بمثل هذا التخطيط وبقيت الاتجاهات القديمة كما كانت فإن تقدم هذا الاقليم لابد أن يكون بطيئا بطءً شديداً ومعرضا لكثير من العثرات والمصادمات.

وهناك سؤال يجدر بنا أن نسأله فى هذا الموقع عن الطريقة السنوسية التى كان لها فى القرن الماضى أعظم الأثر فى الحياة الليبية وفى جهادها المرّ الذى استمر أربعين عاما ضد الايطاليين - أو ضد الاستعمار بالمعنى الأعم. فهل هى ماتزال باقية ومايزال لها أثر فى الحياه. أيؤمن بها الشعب فى برقة كما كان يؤمن بها منذ خمسين عاما مثلا أو منذ خمسة وعشرين عاما! عندما كان عمر المختار يرفع علمها وحده وليس وراءه إلا

فئة قليلة من الأبطال لا يرضى ولا يرضى أتباعه أن يسلّموا ولا أن يطلبوا لأنفسهم منجىً بالهجرة إلى مصر؟ أما تزال الزوايا السنوسية باقية كما كانت بامتيازاتها وأوقافها وجهودها فى نشر التعليم ونشر الأمن بين القبائل الضاربة فى أعماق الصحراء؟

والجواب على هذا هو أن نظام السنوسية مثل أى نظام آخر إنما يحيا ما دامت الظروف التى تعمل فى الحياة تدعو إلى حياته - أو بقول آخر أن نظام حى لابد أن تكون له وظيفة حيوية عندما كانت الحياة فى ليبيا تعتمد عليها وتجد فيها ما يسد حاجة ضرورية إلى العلم وحفظ السلام بين القبائل. وعندما كان الناس يدركون بوحى إلهامهم أن شيوخ الزوايا السنوسية وزعيم الطريقة الأعلى يملؤون فى حياتهم فراغا محسوسا. وقد تغيرت الأحوال فى مدة الأعوام العشرين الأخيرة تغيراً شديداً اكتسح معه الطريقة السنوسية وزواياها. فالحكومة اليوم تقوم مقام الزوايا فى كل ما كانت تقوم به على إسلوب جديد وفى اتجاه جديد ولسنا نستطيع الحكم على أى الإسلوبين وأى الاتجاهين كان خيرا للبلاد والشعب فإن عمل الحكومة لم يبدأ إلا منذ سنوات قلائل لا تزيد على ست سنوات، منذ صارت البلاد مستقلة. ولسنا نقصد فى هذا الحديث أن نوازن بين اتجاه واتجاه ولكنا نقصد أن نبين فى وضوح أن السنوسية كطريقة لها أثر فى الحياة ولها وجود يشعر به أبناء برقة، إنما هى ظاهرة تاريخية قد أصبحت الآن ملكاً لصحائف التاريخ.

نمر الآن مرورا سريعا بشواطئ البحر الممتدة إلى جنوب

بنغازى خلال قبائل القواقير والمغاربة مارين ببعض القرى الصغيرة مثل (سلوق) التى شهدت مصرع المجاهد العظيم النبيل (عمر المختار) و(قمينس) الشهيرة بنعناعها العطر. و(اجدابين) التى كانت فى يوم من الأيام مقر حكومة أمير. برقة (وهو الملك أدريس اليوم)، ثم (العقيلة) التى اشتهرت بالمعسكر الذى حشدت فيه قبائل الشرق، ثم تنفرج مع الشاطئ نحو الغرب مواجهين لخليج سرت الفسيح الذى يمتد إلى آخر حدود ليبيا ثم ينفرج مرة أخرى نحو الشمال لتطل عليه سهول تونس الخضراء. وهذا الشاطئ سلسلة من أمواج رملية تشق محيط السهوب التى تخضّر بالعشب فى موسم المطر ثم تيبس حتى تصير قفراً محرق الحر فى فصل الصيف، وتمتد الأرض من وراء الشاطئ إلى أن تتصل بالصحراء الفسيحة الكبرى. وتتوسط رقعة الساحل مدينة سرت التى خلعت اسمها على الخليج الواسع المحصور بين أنحناءه الشاطئ عند بنغازى إلى الجنوب وارتداده نحو الشمال مرة أخرى على سواحل تونس الشرقية، و(سرت) قرية صغيرة تنحصر أهميتها فى أنها تتوسط المسافة بين بنغازى وطرابلس فهى استراحة طبيعية فى رحلة مجهده. ومصراته أكبر مدينة على الساحل قبل طرابلس وهى مدينة كبيرة لا تقل عن بنغازى ولها طابع يميزها بأنها مدينة ذات شخصية خاصة، وهى ذات أهمية كبرى من نواح عده، فلأهلها مقدرة على النزوح فى البلاد الأخرى حتى ليقال أنها أم بنغازى ودرنه إذ أن كثيرا من سكان هذين البلدين ينتسبون إليها. وقد أنجبت أحد أبطال الجهاد الليبيى، بل لعله كان أكبر شخصية ظهرت فى أيام ذلك الجهاد وذلك هو رمضان

الشتيوى أو السويحلى وسيأتى ذكره فيما يلى عندما نتحدث عن حوادث جهاد الشعب الليبى. ومصراتة مشهورة بنسيج أكلمة لها طابع مستقل وفيه ظرف السذاجة الشبيهه بسذاجة السجاد الشيرازى، وهذه صناعة منزلية تكاد تكون عامة فى المدينة، وحبذا لو تناولتها يد التقدم والتطوير، وعلى مقربة منها مدينة زليطن المشهورة بمنسوجاتها المنسوبة إليها وهى أغطية صوفية يطلق عليها اسم العباء الزليطنى، ولاشك فى أن هذه الصناعة تحتاج إلى تطوير وترقية مثل صناعة الأكلمة المصراتية. ولمدينة زليطن شهرة تشبه شهرة مدينة طنطا، تضم رفات ولى له شهرة فى شمال افريقيا كلها وهو سيدى عبد السلام الاسمر، وأنى لأذكر إلى هذا اليوم ما كنت أشهده فى مدينة دمنهور فى صباى الأول من حفلات الذكر التى كانت تقام لهذا الولى.

ومن الأقاويل الشائعة فى مصراته وزليطن أن هناك من الدراويش من يظهر كرامات عجيبة من نوع خاص. فهو إذا طلب من أحد عطاء ولم يجبه إليه طعنه بسكين تغوص فى لحمه إلى نصابها فيضطر المسئول أن يدفع فدية نفسه وينزل على إراده الدرويش، فلا يكون منه بعد زمن إلا أن ينزع السكين المطعون بها فلا تنزف وراءها نقطة من دم ولا يحس المطعون بها بوخزه ألم . وهذه الأقاويل تشبه، ما كان يُقال عن بعض الدراويش فى الوجه القبلى وهو، الشيخ سليم الذى قيل عنه أنه كان ذا قدرة على الإتيان بالأشياء البعيده فى طرف عين كما فعل عفريت سليمان ببلقيس.

ولكن المدينة التى تستوقف النظر والفكر وتستولى على أعماق

بنغـازى خـلال قـبـائل القـواقـيـر والمغـاربة مـارين بـبـعض القـرى الصـغـيـرة مـثل (سلوق) التى شـهـدت مـصـرع المجـاهد العـظيم النبـيل (عـمـر المختـار) و(قـمـينس) الشـهـيـرة بنعناعـهـا العطر. و(اجدابين) التى كـانت فى يوم من الأيام مقر حكومة أمير. برقة (وهو الملك أدريس اليوم)، ثم (العقيلة) التى اشتهرت بالمعسكر الذى حـشدت فـيـه قـبـائل الشـرق، ثم تنفـرج مع الشـاطئ نحـو الغرب مواجـهين لخليج سـرت الفسيح الذى يمتد إلى آخر حـدود ليبيا ثم ينفرج مرة أخرى نحو الشمـال لتطل عليه سـهول تونس الخضـراء. وهذا الشـاطئ سلسلة من أمواج رملية تشق محـيط السـهوب التى تخضّر بالعشب فى موسم المطر ثم تيبس حـتى تصـير قـفـراً مـحـرق الحر فى فـصل الصـيف، وتمتد الأرض من وراء الشـاطئ إلى أن تتـصل بالصـحـراء الفـسـيـحـة الكبـرى. وتتـوسط رقـعـة السـاحل مدينة سـرت التى خلعت اسـمـهـا على الخليج الواسـع المحصـور بين أنحناءه الشاطئ عند بنغـازى إلى الجنوب وارتداده نحـو الشمـال مـرة أخـرى على سـواحل تونس الشـرقية، و(سـرت) قـريـة صـغـيـرة تنحـصـر أهمـيـتـهـا فى أنـهـا تتوسط المسافة بين بنغازى وطرابلس فهى استراحة طبيعية فى رحلة مجـهده. ومصـراته أكبر مدينة على السـاحل قبل طرابلس وهى مـدينة كـبيـرة لا تقل عن بنغـازى ولهـا طابع يميزها بأنهـا مدينة ذات شخصـية خـاصـة، وهـى ذات أهمـية كـبرى من نواح عده، فـلأهلهـا مقدرة على النـزوح فى البلاد الأخـرى حـتى ليقـال أنـهـا أم بنغـازى ودرنه إذ أن كـثـيـرا من سكان هـذين البلدين ينتسبون إليـهـا. وقد أنجبت أحد أبطال الجـهاد الليبيى، بل لعله كان أكبر شخصـية ظهرت فى أيام ذلك الجـهاد وذلك هو رمضـان

الشتيوى أو السويحلى وسيأتى ذكره فيما يلى عندما نتحدث عن حوادث جهاد الشعب الليبى. ومصراتة مشهورة بنسيج أكلمة لها طابع مستقل وفيه ظرف السذاجة الشبيهه بسذاجة السجاد الشيرازى، وهذه صناعة منزلية تكاد تكون عامة فى المدينة، وحبذا لو تناولتها يد التقدم والتطوير، وعلى مقربة منها مدينة زليطن المشهورة بمنسوجاتها المنسوبة إليها وهى أغطية صوفية يطلق عليها اسم العباء الزليطنى، ولاشك فى أن هذه الصناعة تحتاج إلى تطوير وترقية مثل صناعة الأكلمة المصراتية. ولمدينة زليطن شهرة تشبه شهرة مدينة طنطا، تضم رفات ولى له شهرة فى شمال افريقيا كلها وهو سيدى عبد السلام الاسمر، وأنى لأذكر إلى هذا اليوم ما كنت أشهده فى مدينة دمنهور فى صباى الأول من حفلات الذكر التى كانت تقام لهذا الولى.

ومن الأقاويل الشائعة فى مصراته وزليطن أن هناك من الدراويش من يظهر كرامات عجيبة من نوع خاص. فهو إذا طلب من أحد عطاء ولم يجبه إليه طعنه بسكين تغوص فى لحمه إلى نصابها فيضطر المسئول أن يدفع فدية نفسه وينزل على إراده الدرويش، فلا يكون منه بعد زمن إلا أن ينزع السكين المطعون بها فلا تنزف وراءها نقطة من دم ولا يحس المطعون بها بوخزه ألم . وهذه الأقاويل تشبه، ما كان يُقال عن بعض الدراويش فى الوجه القبلى وهو، الشيخ سليم الذى قيل عنه أنه كان ذا قدرة على الإتيان بالأشياء البعيده فى طرف عين كما فعل عفريت سليمان ببلقيس.

ولكن المدينة التى تستوقف النظر والفكر وتستولى على أعماق

النفس هى المدينة الميتة - لبده - أو هى - ليتس مانيا - العاصمة الرومانية القديمة وهى إحدى مدن ثلاث سمى بها إقليم طرابلس أى إقليم المدن الثلاث (ترى أى ثلاثة وپوليس أى مدينة) والمدن الثلاث هى لبده هذه وأويا ومكانها اليوم مدينة طرابلس. ،هناك مدينة قائمة تدخل من سورها الذى كان قائما حولها منذ ستة عشر قرنا وتسير فى طرقها المبلطة إلى أسواق مخططة مقسمة ومعابد ماتزال محتفظة بروعتها وحمامات ماتزال أحواضها باقية والأفران التى كانت تسخن المياه للأعيان الوادعين قبل أن يذهبوا إلى مشاهدة ما يعد لهم من صنوف اللهو فى مسرح عظيم يتسع للآلاف من النظاره فى درجات من الحجر على شكل نصف دائرة. وماتزال حظائر الأسود والوحوش باقية، وإن خلت من أسودها كما خلا المسرح من الضحايا الذين كانوا يساقون لتلك الأسود لتلتهمهم على مرأى السادة المترفين لتوفر لهم ما يحرك نفوسهم الفاترة من المشاهد المثيرة.

فهناك عالم ميت يقف فيه الزائر على آثار مدينة منقرضة، بلغت من الفن والدقة فى دولة بلغت ما بلغت من القوة والسلطان ولكنها تحللت وزالت لما كان ينخر فى عظامها من عوامل التعفن والفناء. وإذا كانت لبدة من أروع المشاهد لرواد السياحة وعلماء الآثار للإطلاع على أحوال المدينة المادية الحديثة وكشف الستار عن فصل من فصول القصة الإنسانية، فإنها أروع المشاهد من ناحية أخرى - ناحية العبرة - التاريخية التى تدل على أن المدينة الآثمة تنهار وهى فى ذروة مجدها المادى ويمسخها سر الحياة الأبدى إلى حجارة عندما تخترق حدود نواميسه المقدسة.

وقد مر العرب بمدينة لبدة فى زحفهم الغربى ولا تدل أخبار التاريخ على أنها وقفت لهم بأسوارها الضخمة وقفة مشهودة فى الدفاع عن حياتها اللاهية. وقبل أن يصل الطريق إلى مدينة طرابلس لا يسعنا إلا أن نعرّج على مدينة (تاجورة) التاريخية، ونمر بين بساتينها البديعة ونخيلها الباسق، بل ولا يسعنا ألا أن نستريح قليلا فى منزلها الريفى الساذج الذى يخرج إليه طلاب النزهة من طرابلس فى أواخر الأسابيع ليشربوا فنجاناً من الشاى أو كوباً من الجعة.

فالخمر غير محرّمة فى ولاية طرابلس على خلاف ولاية برقة، وللناس أن يقارفوا شرب الخمر إذا شاءوا علانية على خلاف الحال فى برقة، حيث يتخفون عن أعين الرقباء وينتهزون الفرص للعب من الممنوع حتى يحسوا بأنهم قد أثموا حقا. وفى تاجورا الجميلة يتمثل فصل من أهم فصول تاريخ ليبيا فإن المسلمين الليبيين فى طرابلس لجأوا فى أوائل القرن السادس عشر إلى الخليفة العثمانى سليمان القانونى ليدفع عنهم عادية الاسبان الذين كانوا عند ذلك مسيطرين على سواحلهم متحصنين فى قلعة طرابلس الحصينة. فبعث إليهم سليمان نجدة بقيادة مراد أغا، فأجلت الاسبان عن أرضهم ومن ذلك الحين صارت طرابلس ولاية عثمانية. وما يزال جامع مراد أغا فى تاجورا أحد المعالم التاريخية المشهورة.

والطريق من تاجورة إلى طرابلس سلسلة من البساتين التى يسمونها هناك بالسوانى، وهى كلمة عربية تطلق على جهاز البئر فاتسع معناها حتى صار يدل على البستان.

وتشبه هذه السوانى إلى ما كان بمصر قديما من البساتين المحيطة بالقاهرة، فى مثل المطرية، ولا تزال منها بقية قائمة إلى اليوم، بعد أن أغار العمران والبناء على البساتين الكبيرة الأخرى التى كانت فى أطراف القاهرة وماتزال بعض أسمائها باقية فى الأحياء المزدحمة كاسم على غير مسمى، بستان الفاضل، وبستان الصقيلى.

وهذه السوانى تغمر طرابلس فى مواسم الفواكه بالمشمش والبرقوق (العوينة) والخوخ، والأجاص (الكمثرى)، واللوز، كما تبعث إليها أصنافا من التمر البديع فى فصل الخريف. وإلى جانب هذه البساتين سلسلة من الحقول التى تروى من مياه الآبار العذبة التى يمتاز بها باطن الأرض فى إقليم طرابلس، وهى تنتج الخضر بأنواعها المختلفة كما تنتج الدخان أحيانا.

وقد أُدخلت زراعة الفول السودانى وهو (الكوكاوية) كما يسمونه هناك فازدهرت حتى صارت مورداً زراعياً عظيماً.

وأما المدينة نفسها فجديرة بأن يفرد لها حديث خاص بها.

رقم الايداع : ٩٦/٩٣٩٢
الترقيم الدولى : I.S.B.N.
977-235-671-6

شركة الأمل للطباعة والنشر
ت : ٣٩٠٤٠٩٦

وفى التاسع والعشرين من شهر أغسطس كانت الطائرة تحملني عبر الحدود العربية الي آفاق تمتد الى ما وراء لا نهاية من الزرقة عن يمين، تمتزج فيها السماء الصافية بساحة البحر الابيض الساجية، ولا نهاية أخرى من الصفرة عن يسار تمتزج فيها أشعة الشمس الذهبية والرمال التي كانت منذ فجر الانسانية «جارة الوادي» وها أنا أنظر الآن الى ورائي، فأشعر أني بعد أن أقمت فى ليبيا عامين ونصف عام، كأني كنت في جولة من تلك الجولات السحرية التي طالما كنت اتطلع اليها وأسبح مع خيالي فى آفاقها. وإذا كنت الآن أبدأ فى كتابة هذه الخواطر التي بعثتها اقامتي في ليبيا، فذلك ما يفعله السائح وهو يكتب عما يجيء في نفسه خلال رحلته، حتى يستطيع بعد ان يعود منها أن يستعيد استمتاعه باللحظات الموسيقية التي مرت به.

بهذه الكلمات الصافية، العذبة، اهتز بالمحبة والصدق، يسطر الأستاذ محمد فريد أبو حديد خواطره التي تفيض بعشق المكان ... والإنسان.

وهو في هذا العمل الذي تنشره الهيئة العامة لقصور الثقافة بعد ما يقرب من اربعين عاما على كتابته ينعش ذاكرتنا بعبق الخمسينيات ... حين بزغت شمس الثورة والحرية والوحدة ... والقومية لقد ارتحل أبو حديد الى ليبيا تلبية لنداء خفي ... وقوى عجز عن مقاومته ليأتي الحصاد إبداعا ... بديعا ... وأنشودة تمنح القارىء صدى من الهزة التي كانت تترنم بها نفس الكاتب.

علي أبو شادي

